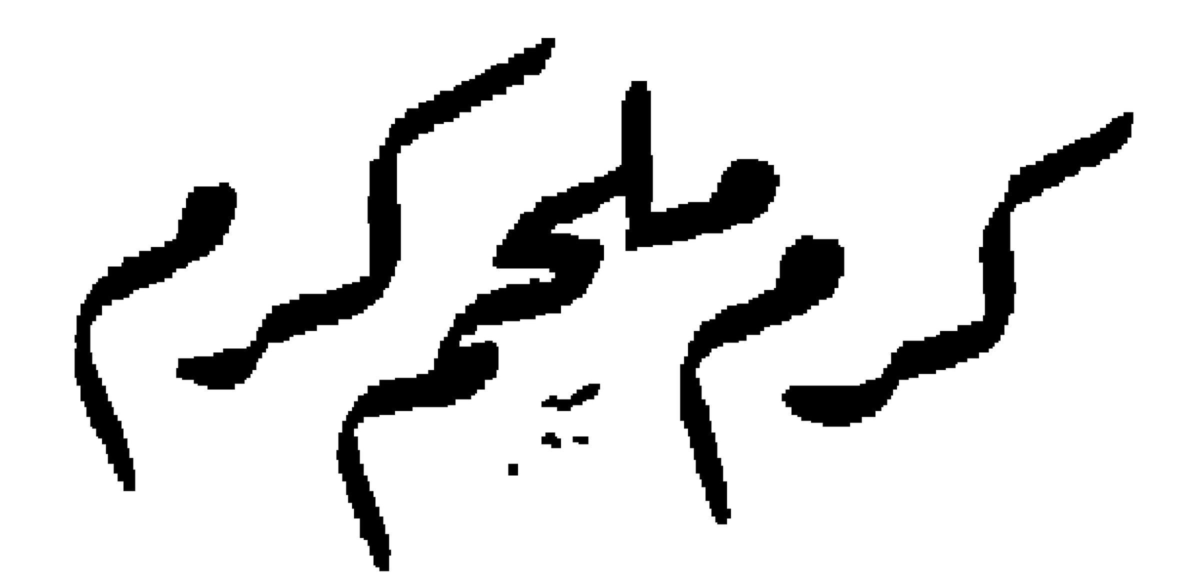
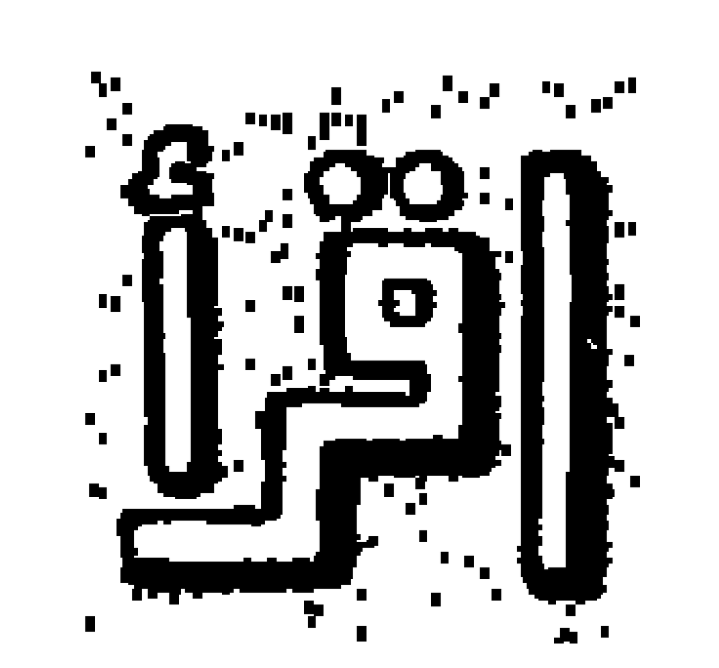




اللحن الشرود

اللّحنُ الشّرود

كرم ملحم كرم

اللحن الشرود

اقرأ ١١٦

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٦ — سبتمبر سنة ١٩٥٢



١

سكن الليل وما أغفى الوتر . فما ينى يسكب رناته المخضبة بالنشوة ، كأنه الشلال المترنم بأنشودة الأبد . واكتنزت العتمة ، وجاول النعاس الأجفان يعقدها بأصابعه اللدان ويهبها لسحره المجنّح . ومن حجرة ضيقة ، فى بيت حقير ، أطلت على هذا المعتكف على الأوتار يؤرقها ، امرأة عجوز ، سوداء الجلباب ، بيضاء اللمّة ، تخاطبه بالبيان الرفيق الملتاع : ألا خذ لنفسك بعض الراحة . فالليل يهمّ بأن يطوى أذياله والفجر يوشك أن يلوح . إنى لأخشى عليك من العناء وقد سطا عليك السهاد الأكول !

فلم يشأ أن يصغى إلى هذه الغارقة فى الكبر ، المتهدلة الخدين ، المترهلة الجسد ، الفاشية الغضون . فدنت منه حتى كادت تلامسه ، وجمجمت بضراعة كأنها تتشفع إليه فى مهجتها : قم إلى فراشك ، يا روح أمك . فالأوتار تعبت من نقر ريشتك . فإن تكن لا تشفق على نفسك فارحم عودك ، والجماد كالحىّ بحاجة إلى فترة من هدوء !

فمضى فى إثارة الأنغام لا يهادن واللحن لم ينته . فليست تدرك هذه العجوز القلقة عليه مدى روعة بيانه المسلوخ من حوانيه . وفى النغم من سمو الإبداع ما يعدل بلاغة القول الخلوب . لتدعه أمه يأنس ببدائعه ويطلقها على سبعة مدى ، أبكاراً فواتن . ولكن الأم الفائرة الحنو أبت عليه الاسترسال إلى شجوه الغرّيد . فقالت بصوت بكيّ تغلو به فى الاسترحام : صن أمك من الأرق إن تكن تبتغيه لنفسك . فهل ترضى بأن تشقى أمك ؟

فهتف بغيظ : دعينى !

إنها لتزعجه بإبعاده عن ألحانه النواضر ، وما ينقر عوده إلا ليذيع صبابته . فليعلم الليل، والأفق، والفجر، أنه عاشق ولهان . ولتتألق دنياه بوهج غرامه . ولكن هذه الملحّة فى ثنيه عن كرائم أوتاره ليست سوى أمه . ولم تمت فى سويدائه جلالة برّ الوالدين . فآثر إيلام نفسه على الإساءة إلى من تغمره بحنانها خالصاً من المنة ، بريئاً من الإمساك . وطاب عن إجهاد عوده ، وأودعه مصانه . والتفت إلى العجوز الشحيحة عليه بالضنى يقول ببسمة الاسترضاء : صدقت ، حان لى أن أنام وأن تستريحى . لى من غدى إلى عودى وافر المتسع !

ورفع عن عينيه نظارتين سوداوين . وحبا إلى سريره على

عمه كأنه لا يتبين طريقه . فأمسكت أمه بذراعه تقوده إلى مرقده كالأعمى . وهو ذلك الأعمى وفى محجريه باصرتان منطفئتان لا تختلجان بومضة . فتلقته القوابل كفيفاً وما أذنت الغشاوة المضروبة على عينيه فى انقشاع . إنها لإحدى القواصم ، وقد عجز الإدمان عن تليين قسوتها ودفع مضضها .

وغار فى الدهمة المعاندة فى الجلاء وحياته كلها ليل . يدلج ولا صبح له . ويحس بأنه سجين وهو الطليق الجناح . فيمشي ويجهل أمده . ويعيش وليس يدرى أين، والأماكن والوجوه لا ينفذ إليها إنساناه .

ويؤلمه الحرمان وليس يعرف ما شكل الأرض ، وما زرقة السماء . ما لون الريحانة ، وما شعاع الشمس . ما سعة الخضم ، وما ديباجة الغروب . فكل ما حوله ألغاز وهو البعيد حتى عن نفسه . فغاب عنه ما يطأ ، وما يرتدى . ما يقتعد ، وما يمضغ . وودّ لو يعلم كيف تميل الريح بالأغصان ، وكيف يكتب الموج سطوره على صفحات الرجراج ثم يمحوها . وأنى يدرك الصبوة وقد تقطعت الأسباب بينه وبين حقائق الأشياء ؟

بل ودّ لو اتقى صنيع من حوله وهم يرشدونه إلى هدفه ، ويقودونه إلى مقعده ، ويظاهرونه حتى على الاهتداء إلى لقمته وشربته ، وعلى ارتداء ثيابه كأنه الطفل الحيران ، بل كأنه

السائل الذليل فى ما له فيه عن السؤال غناء .

وأحس من أيامه بأنه غريب عنها وقد ضاق بالحياة . فالبخيلة لم تنفحه منها بما يعدو سفعة الغراب . وما ركن إلى سوى عوده وعصاه وهما رفيقاه الأمينان لا يملانه ، ولا يتفاديان من البذل فى الألفة . عوده خدين شجوه . يبثه شكواه فتفيض الأوتار بمنازعه . وعصاه نبراسه فى خطوه . فيجس بها الأرض ويتقى الزلل . وفى هذا النطاق الحفيل بالعراقيل تنقضى أيامه . فيجرى أبداً من عالمه المجهول فى رواق قاتم ضل عن آخره .

وما كانت نفس «عزيز عدوان» لتنطوى على البهجة وقد تراءى له أنه فى البسيطة أشبه بالطفيلى فى عرس . فإلامَ دعى وليس يتحرك بطلاقة ، وما يكسب قوته بهناءة ؟ ... ومن دعاه وما جادت عليه المقادير بوفر يقيه الكدح ، وينفّس عنه كربة ظلامه الدائم ، كأن قد أطبقت عليه جدران أربعة لا تبيح له فرجة إلى هواء ، ولا خرمة إلى نور ؟ ... على أنه غالب ، بما أوتى من وسع ، النكد المحلولك . فيدعى إلى الليالى الملاح لعزف أنغامه ، ويتقاضى ما يجنّبه العثرة . يحيى فى النفوس الطرب ولا يلقى من ينعش نفسه ، كأنه المهمل الزرىّ . فيتمايل سامعوه ثملين بألحانه ، على حين ينغمس فى أسى مرير ليس لليله صباح . الله للبلبل السجين كم ينتشى بزفراته من يلقون إليه

آذانهم ، وما فى صداحه غير مهجة تئن ، وحشاشة تذوب !

وعزيز أخذ نقر العود عن أبيه. وما تزال بلدة « إهدن » اللبنانية ، أخت الأرز وجارة السماء ، تذكر «جميل عدوان» فى أناشيده السماح ، وفى زقزقات أوتاره الشوادى. ولكن عزيزاً إذا ورث عن أبيه العود والبؤس ، فلم يرث عنه رخامة الصوت ، ولا جلاء البصر ، وقد تنكبت حنجرة الابن عن العذوبة ، وبلاه سوء طالعه بمذلة العمى يجرّها كما يجر السائل أطماره ، والأثيم خطاياه .

إلا أن لهذا الضرير روحاً أبية تسيل حناناً ، وشعوراً رهيفاً يحبب إليه الفداء . وانطبع على ليان فى المعاشرة ، وعلى ذاكرة أمينة لا يلم بها نسيان . فإنه ليعرف الدارجين حوله من وقع خطواتهم ، وهمس شفاههم ، وما ضنّت عليه القدرة بأذن سامعة لا تنبو حتى عن الهينمة الخجول .

وأمه وحدها تشاطره مبيته . أمه الراضية من حكم الدهر بالجفاء والضنك . فتقاسم ابنها الرغيف إذا توافر . وتقيم على الطوى إذا قبضت عنها الرحمة نداوتها . غير أن إهدن المتلاف فى سخائها ، الكاتبة الصفحات البيض فى الليالى السود ، لم تكن تبخل على عزيز عدوان بما يزيح عن جبينه وطأة الغضون الدهم .

وإهدن معراج الجنة . تحتفل فى صيفها بربيعها لفرط

اخضرارها . فالينابيع تتدفق من كل صدر ومنحنى فى المربض الأريض ، الشاهق كأنه وكر النسور . وتتعاقد فيه أغصان بواسق الشجر من جوز ، وصفصاف ، وسنديان ، فترصعه بجميل النضارة ، وتشيد فيه القباب الخضر كأنها ملاجئ الرحمة لمن كواه القيظ اللهيم .

واعتمّت البلدة بقمم جرد تفرض وعورتها وجلالتها على الرائى الخشوع ، وبهضاب صاح فيها الصنوبر والأرز والشربين كالبسمة فى القطوب ، وانتثرت عند قدميها التلال والسهول والأغوار وقد تراكبت فيها الحقول كدرجات السلالم ، وتعرّشت على أحفتها الدوالى تتلألأ ببواسم العناقيد .

وفى ساحات إهدن ورياضها تمرح أسراب الغيد ميّاسات القدود ، حاليات النحور والمعاصم ، فيزدن فى بهجة البلدة الفاتحة صدرها للنزيل ، والمتغنية بمتعة الأنس وهى منها على فتون . وفى هذا الفيض من البدائع عاش عزيز عدوان ، إلا أنه أشبه بمن ينعم بالعرف دون مرأى الزهرة ، وبرسيل الماء دون التلذذ بمشاهدة الينبوع .

وفى الليلة المبسوطة الأمد ، الحلوة الأرق — ولم يرقد فيها عزيز حتى على اضطجاعه فى سريره — رجع ناقر العود الأعمى إلى منزله على نشوة ، كأن ليس فى عروقه غير خمرة تسيل .

وجلس إلى أوتاره يسكب فيها ثمله . فهو طروب . وأى نجىّ له أصدق من هذا العود يودعه شجوه وقد أقامه، منذ تعارفا، أميناً على سره؟... فيبوح له بالغبطة وباللهفة، بالشهوة وبالخيبة، بالعسر وباليسر . والعود أليف وفىّ، يرذد على صدق فى الأداء ما تختلج به هذه النفس الأسيرة، المكدودة ، من مرح وكمدة، من وحشة وأنس . وما كانت الوحشة والكمدة لتتجليا فى سوى النزر عن ذلك البال المعنّى ، وقد وترته الأيام حقّاً ضاعت به لديه الرسوم ، والتخوم ، فما يدعو إذاً هذا المغبون ، المتمادى الظلامة ، إلى الحبور وفى ضميره من جفوة القدر جراح نازية، لا تختم على برء ؟

هو يعود من سهرة حفية ، زاخرة بالطيب ، أصغى فيها إلى همس بليل انتشت به أذنه ، وترنح قلبه . فما يفتأ يتردد إلى مثوى «أمين الطريف» فيحضر مجالسه، ويطلق فيها أنغامه . وبات بعد طول مؤالفة من أصدقاء المنزل ، بل ممن يعطف عليهم أمين الطريف ويظاهرهم على قسوة العيش . فيدخل عزيز عدوان المغنى المضياف وئيد الخطو ، منخفض الجناح ، كأنه يحبو إلى معبد . وتنفرج أساريره عن بسمة اطمئنان ليقينه أنه فى دار قوم بررة لا يتنكرون للنزيل ، ولا يشمخون على الجليس .

وأمين الطريف فى إهدن من النواصى ، وقد ترجح على وفر

من مال وجاه . فلا تلتوى له كلمة ، ولا تهون كرامة ، وقد عرف مداه فما يجاوز الوسع . وبسط يده فنعم بمكانته . ودرج فى رحابه ثلاثة أولاد أوتوا من العلم ذخر المتفوقين ، ومن اللطف والرواء قسط المحظوظين . وأعدّهم أبوهم لغد مغبوط واقفاً عليهم جهده . حميد ، الابن البكر ، للمحاماة . ومنير ، وهو الأوسط ، للطبابة . وفادية الصغرى لمن يعادلها محتداً ، ويضمن لها وارف الرخاء .

وفادية ذات طلعة ريّا ، وقدٍّ وثاب ، برىء من البدانة . بيضاء البشرة على دعج مقلة ، وسواد غديرة . مستديرة المحيا على عذوبة . ضاحكة المبسم على خلوّ ضمير . عاطلة من الزهو ولم يكن للكبر مجال إلى روحها . بارعة فى الرقص على مختلف ضروبه . غنية الحنجرة بصوت مغناج ، أغنّ . طويلة الساقين على رقة وانسجام . لا تعدو العشرين . ولقد صفا لها قلب أبيها ، وهى لديه أغلى من مهجته ، وأحلى من بسمة القمر فى الليلة الضلول .

وما كانت إلا حيث علا بها ظن أبيها ، فى المرتع العالى من الدراية والرزانة . وصوتها الندىّ الصداح حدا عزيز عدوان على الإفراط فى المجىء إليها يرافق صوتها الحلو الرنّة بأوتاره المرنّحة . فشعر بأن مكانه بجانب هذه الخميلة النغم . فيستسلم ، وقد جلس

إليها، إلى شجو فاتن يخدرأعصابه، وتنعم بمتعته نفسه الجافة. العطشى إلى الحنان . فلم يتفق لناقر العود الأعمى أن يظفر بهذا العطف بعيداً عن فادية الطريف ، وقد حدبت عليه حتى باتت تحسبه من أوفى خلصانها .

إنه ليجهل معارفها وليس يبصر روعة مبسمها ، ولا بياض ثناياها . ولكنه لم يغفل عن كونها الحسن اللباب مع ضياعه عن الحسن وما يدركه . هو لم يتبين لطف قامتها ، ولا انسجام ساقيها . إلا أنه يحس بكونه حيال علق نفيس، عابق الطيب، سمح الخلق . هو لا يلم بصفاء بشرتها ، وبتلاعة جيدها ، وبانتبار نهديها ، وبضاضة ذراعيها . غير أنه يدرى، بما تنتفض به بصيرته من رهافة جلاء ، أنه إزاء حرم مصون ليس له أن يطمع منه فى لمسة . ويدمى قلبه أن يمتد به الحرمان حتى إلى رؤية أقرب من يألف . فيكاد يتلاشى زفيراً وحرقة لولا ما يتوسد من قناعة ، وما يتذرع به من صبر .

وما كان يشتهى — على وفر ما يدهمه من ضؤولة شأو — إلا البقاء فى موضعه لا تزعزعه الدواهى الممعنة فى قهره، مكتفياً من الواقع بالوهم ، ومن الصوت بالصدى . فلا تبعده فادية عنها لعثرة تبدر منه ، أو لبرم به . فلململم نفسه فى مخاطبتها ، وفى جلوسه إليها ، كالأجير المتخشى ، يحاذر أن يطرده سيده

فيبالغ فى اتقاء الخاذلة .

وهاله أن يقر لنفسه بكونه يهيم بهذا الكمال الأنيق . أيعشق فادية الطريف وهو فى المرتبة ذرارة لا تبصرها عين لفرط حقارتها؟...
وجاهد فى أن يخرس فيه الصوت المتعالى ، وأن يمسك بقلبه عن الخفقان الجانى ، وليس لمثله المزدرى ، الكسيح ، أن يصعد القمة الشامخة . فخانه ذرعه . فالحب النامى فيه عنيف الخلجة ، طاغى السلطان ، هز جوارحه . وكل سعى للوقوف به عن أمده بات كليل الوسع .

وارتعش عزيز هلعاً . أيهوى المحال ؟ ... إلى أى متعبة يجره قلبه ؟ .. وأنكر على هذا الخافق بين جنبيه نبضة الكلف. ليس له أن يغالب الحريز . ولكن الشوق ما فتئ يضطرم . ونقم عزيز على خاطره . بيد أن النقمة لا تكاد تتلاشى حتى يحس الصب المغرم بهناءة الشغف . فلم يغب عنه أن الحب متعة ، وأن أجمل الأيام ما حفل بروعة الحنين . فأجمع على انتهاج طريقه الوعر ، وإن يكن فيه أشبه بمبتغى النجم الراسى فى مناط الفلك .

على أنه سيكتم هذا الميل عن فادية، وليس له أن يجازف بمكانته منها . فحسبه أن يهواها وأن يتسع له الجلوس إليها ، مع إخفائه عنها نزوعه . فالنسيم الموهون يلقى فى كل صعيد هائمين ،

متيمين ، غير أن آذانه تنبو عن سماع هتفات الشوق . ولا على فادية الطريف أن تقف من عزيز عدوان موقف النسيم المحيي من المتصابين إليه . فينعشه قربها ، وطيبها ، وحديثها ، دون أن تلمّ بما به منها. وإذا ما اكتوى بهواه الحبيس فإنه ليعلم أنه يشقى فى حب يسموه خطراً . وفى هذا الإغراق فى الطماح بعض العزاء لمن يلتمس الحرون .

وفى كل يوم لعزيز عدوان إلى دار أمين الطريف مزار. فيجالس فادية ، ويسمعها ألحانه ، ويطلب إليها أن تغنيه أشهى أغاريدها كى يطلق لأوتاره مداها احتفالا بالشدو الأغنّ . وإذا فاته الحافز إلى ارتياد مغناها بحث عنه واهتدى إليه . فيبدو وفى مقوله خبر . هذا لحن جديد وقع عليه . وتلك أغنية شائعة حفظ كلماتها وأقبل يرددها فى مسمع فادية كى تحفظها وتؤديها .

وما سدّ عنه المأوى الرحيب بابه . فالبشاشة تغمره ، والرفق يشفع فيه . ودعاه أمين الطريف إلى مائدته ولم يمسك عنه رفده . ولكن عزيزاً ما يجيء سائلا . فاعتصم بالرفض . إن له من إبائه مناعة تقيه معرة الابتذال . ولكن اليد السخية لا تهادن فى النوال ، فيضطر عزيز إلى الإجابة وفى شفتيه غمغمة الشكر ، وفى نفسه صرخة الألم . فما يذهب عنه ، على ندرة

ما أوتى من علم ، أن الإشاحة عن العطية لؤم مكسر . ويحبو إلى فادية يستجير بها من أبيها ، معلناً بلهجة لا تخلو من مرارة العتب : ولكنى لا أبدو فيكم لامتحان فضلكم ، وأنتم معدن المبرّة . فما يدفعنى إلى موئلكم سوى إعجابى بنفسى وأنا أظفر بمجالستكم . فليرأف أبوك بكرامتى وليمنع عنى الخجل من ضميرى . إنى لفقير ، ولكن زمنى لا يبخل علىّ برزقى !

وتأفف من إحراز مال لا حق له به . فضحكت فادية وهتفت به جذلى : خفف عنك . ما شيدنا لك منزلا ، ولا وهبنا لك بستاناً . إن هى إلا بعض أعطيات لا تسمن ، ولا تذل ، يرى فيها أبى تكريماً ، وإقراراً بالضلاعة !

فلم يحتمل طبعه مذلة الاستجداء . قال : ولكن أباك أثقل جيوبى بهباته ، حتى بت أتحامى لقاءه . فليوفر لى أنفتى بالاتئاد فى البذل ، وأنا الشاكر الراضى !

فأحست بوجعه ، وأكبرت فيه عفة المهجة . ودعته إلى التنفيس عن خاطره وستحمل أباها على التريث فى المنحة . قال عزيز : مجالس الطرب فى إهدن لا يجفّ موردها ، وريعها يقوم بى . وإنى لأشعر بشلل فى يمينى وهى تقبض على مال لم يبلله عرق جبينى !

وينقر أوتاره باكتئاب ، ويتجلى لفادية مبلغ أساه .

١٧

ويحاول ألا يعود . ولكن العودة مقدورة عليه؛ وليس له أن يعيش بمعزل عمن أمست لديه شطراً من روحه . فالإقامة ، حتى الأبد ، على جوع جسد ، أهون عليه من البقاء ، لبعض يوم ، على جوع روح .

٢

حبت فادية إلى أبيها تقول ببسمة تحفل بالرجاء و بالإعجاب : هل لك أن ترفق بحمية عزيز عدوان ؟ ... ما حسبتَ هذا الأعمى على تلك الرحابة من النبل . فيضيمه أن يتناول مالا لم يربحه جهده . وأنت تنفحه بالعطاء فتؤلمه . هلا أقمت له من برك عملا يتكافأ وما يروقك أن تجود به عليه ؟

فطاب له الضحك حيال قزم يصول . هل للمعدم أن يغضب والرزق يجرى عليه بلا عناء ؟ ... بيد أن أميناً الطريف ليس بمن يسخر برفعة النفس أنى بدا وجهها . فقال يخاطب ابنته مكبراً وضاءة الروح فى العواد الضرير : هل أبدى الظلامة يا فادية ؟ ... إنه لمفطور على الإباء . هذه الصدف الحافلة بالدر نادرة ، غير أنها لا تشكو النفاد . وعزيز عدوان منها . يبهجنى أن أرى من يطمع فى مضغ لقمته مغموسة فى ندى مجهوده . ولكن أى عمل يقوى عليه الكفيف ؟

فأطرقت لتقول بحماسة كأنها وقعت على المنشود : ما رأيك فى دعوته إلى تعليمى نقر العود ؟

فراق أميناً أن يسقط على حيلة موفقة تبيح له التمادى فى الحدب على الفتى الأعمى . وقال يطرى فى ابنته الفطانة : أصبت يا فادية ، إنك لذات حصافة . سنعهد إلى عزيز فى تمرين أناملك على رنات الوتر . تأخذين منه ويأخذ منا . ولا يقف بنا عند ذاك حياؤه عن إنقاذه من عسره ، وأنا الملمّ بما يكابد من ضيق !

واتفقا على المداورة فى المنة . فإن لم يرض عنها عزيز عدوان هبة فلتكن جعالة . وحض أمين الطريف ابنته على الرأفة بالكليل النظر . قال ببيان السماح : من المقدور على من نصرهم الزمن ، أن يجلوا بقدر المستطاع القطوب عمن تجهمت لهم نصرة العيش ، يا ابنتى . ونحن وقد أنزلت علينا السماء خيرها ، لن نشقى بمنح المقلين بعض عوارفها . ليكن عزيز عدوان ممن كتب لهم علينا حق الزكاة !

وانتشرت فى الوجهين ابتسامتان هانئتان . فالرحمة لا يضيرها أن تسلك متعدد الطرق إلى محجّها ، ولا أن ترتدى مختلف الأزياء . فستظل رحمة أنى لاح خيالها . ورصدت فادية عزيزاً وليس له أن يطيل الغياب عنها . بيد أنه تأخر فى ذلك النهار وقد دعى إلى نبع مار سركيس ، المتدفق من أحشاء الصخر غدائر سخية من السلسبيل العذب ، يحيى فيه إحدى الليالى الملاح .

ورقبت فادية مجيئه بما لم تتعود من الاكتراث له . ما به أطال غيبته ؟... هل ساءه احتفال أبيها بالالتفات إليه فقطع أوبته ؟ ... وأوجعها ألا تراه . وأحست بكونها ليست على اطمئنان وهي تفقده . فما تطيق أن تجرح قلباً وتكوى مهجة. واعتزمت أن تناديه إليها فتزيل عنه حرده ،وليس لها أن تبقيه مرضوض الخاطر ، دامى الحمية .

ولفتت أباها إلى تماسك عزيز عدوان عن الزيارة . قالت: أرأيت أنه يكرم نفسه ؟

فأعلن الأب ، وكأنه يعتذر عن حسن صنيعه : ما رميت إلى الغمز من أنفته ، يشهد الله . ولكنى رغبت فى إكرامه . لك أن تدفعى إليه من يجيئك به . وسنتوفر على محو الهفوة وما كنت أحسب فى الإنالة مذمة !

وأزمد الروحين أن يهصرا فى بال الضرير المسكين نفخة الإباء . فليس لمناعة النفس أن تضام حتى فى هباءة . وانبسط فى الأب وابنته الإعجاب بالكفيف العيوف ، المحتاج المكتفى ، الطامع فى الارتزاق من ريشته ووتره لا يعدوهما . فإن لم تدرّا عليه بما يقيه العوز ، فسيصبر على البلاء ، مقتاتاً بجلده ودمعه .

قالت فادية : ليس لنا أن ننفى عزة الجانب عن ذوى

الأسمال . وما كانت وقفاً على الشبعان من هبات الزمن . ففى أبراد هؤلاء الرازحين بالشدة تغلى أحياناً رفعة وجلالة تخلو منهما صدور السراة !

فوافق أبوها على قولتها . وما كان من تستطيل عليه الرثاثة بالخانع المزدرى . ونامت فادية ليلتها ونفسها ممتلئة بمناقب العود الأعمى . وإنه ليبدو لها فى إطار من السمو يعز على سواه من أرباب المكانة . وراعها استمساكه بطهارة يده . ليس ممن تنساب اللقمة إلى مبالعهم ملطخة بهتيكة السؤال .

واستوضحت فادية الطريف خاطرها . أليس لها أن ترفع إليها هذه النفس المكابدة ، على رغمها، جور الزمن ؟... حرمها دهرها النعمة فى صعيدين ، صعيد اليسر ، وصعيد النظر . فلو كان عزيز عدوان ممن ملكوا سلامة العين لتبدل أمره . فيجرى فى شوط ذوى الجد ، وينعم بالوفر فلا يجفوه الرغد . ولكن القدر وتره حقه بالحياة المخضبة بالرفاه . وعلى من أوتوا الرخاء أن ينجدوا الملهوف ، ويدفعوا عنه لؤم المحن .

ومن يتمايل فى سنّ فادية يغمر روحه شعور من رفق بكر ، لا تثنيه عقبة ، ولا ترهبه جسامة الفداء . فما انسلت إلى قلبه وذهنه مشاين الصلف ليمتهن من خانهم الحظ ، ولا عرت لبه مقابح الغدر ليكيد لمن حالفهم السعد . فإن نفسه لمرآة صافية

ما تشوب نقاوتها ذرارة . وبهذه المهجة السليمة من فحيح البطر ، ودرن الحقد ، جنحت الغادة الرحوم ، الوضاءة الدخلة ، إلى نصرة الأعمى غريق النكد .

هل خفق له جنانها برعشة الهوى ؟ ... لم يكن لها أن تطبع عاطفتها الجياشة بطابع الحنين وما زالت بمنأى عن الشوق والكلف . إلا أنها اعتزمت الإنقاذ كأنها مدعوة إلى أداء رسالة . وستحمل بيمينها مشعل الهداية عالياً لتنير به سبيل ذلك التائه فى الديجور . فتسعده وتذهب عنه بالعناء ، وليس لها أن تهبه للدواهى تتخاطفه سلعة بخسة . فالرحمة مقدورة عليها وما لمثلها أن تصد عن منكوب .

ولكنها تحس بأن موقفها من عزيز عدوان يجاوز الرحمة . ثمة ولاء وصداقة ، بل ما هو أبعد من الولاء والصداقة وقد بلغ الأعمى من مودتها المقام المنيف . فخيل إليها أنها تلمس فى أنغامه شجواً يهزها ، كأن قلبه يتماوج على الأوتار ، مبتلاً بمنازعه الخرساء الناطقة .

أيهواها ؟ ... وغالبت هذا الاستفهام العارض . فهل لها أن تشعر بنبضة الوله إزاء ضرير يكويه الإملاق ؟ ... إن بينها وبين عزيز عدوان لفلوات شواسع . فإذا اتفقا ذوقاً فقد اختلفا مقاماً . على أن فادية صادمت نفسها فى هذا الفاصل العريض

القاعدعنها بالكفيف المقل . وهل يكون المقام سداً دون الميول ، فلا يتهدم وتتساوى القمم والوهدان ؟ ... لها من مال والدها ما يكفيها ويصون الأعمى من المشقة . ولكن ما بها تهبط الأغوار ، أتجهل نفسها وتخفى عليها منزلة أمين الطريف أبيها ؟

وعادت إلى سلخ الخاطر الوامض دراكاً فى ذهنها . بيد أنها لن تسلم من عبثه إلا والرقاد ينشر عليها غفلته . فتغوص فى سكينة تضيع فيها خلجات الحس . على أن لبها الساهر عاند فى الإغفاء كأنها تصارع ما يرجحها همة ، ويعدوها أمداً . عزيز عدوان لم يكن يغيب عن خيالها .

وأجمعت على كونها ليست منه على ولوع ، وما يزيد التفاتها إليه على مهزة الاستلطاف . إلا أن هذا الرأى ما لبث أن التوى فيها وقد دهمتها الحيرة . فهتفت فيما بينها وبين نفسها : لا أدرى ما بى منه !

وأقرت بجهلها . أهيام أم رأفة ؟ ... وضاق بها البيان فألقت الغطاء إلى ما فوق رأسها تبتغى الانغماس فى رقدة عريضة . فالنوم وحده يخفت فيها الوسواس . وتململت طويلا وكادت تيأس من الكرى . غير أن النعاس لم يلبث أن ران عليها فغابت فى لفائفه العذاب .

وليس أحب من التخدير الشبيه بالاضمحلال إلى النفوس

القلقة . وما استيقظت فادية إلا والشمس مستطيلة الأشعة ، تفيض بنورها على القمة والسفح ، وتنفذ إلى أصلاب الأرز والشربين ، والجوز ، والحور ، والصفصاف ، فتكسوها حلة من نضار تختال بها . وتقتنص من ظلالها بما تخلع عليها من مستكمل الضياء . وتذيب سحرها فى الماءفيختلط الذهب بالفضة ولا تغفل عن الدالية فتلهب بميسمها خد العنقود وتبقى فيه ، وقد نضج ، شعلة من مبسمها . وتسكب على التينة الينوع فتسيل حلاوة وكأنها تتناهى فتوناً .

ودرج الفلاح وراء محراثه يشق الأرض منتشياً بعبيرها ، راصداً خيرها ، لاكزاً بقرتيه وهو يطلق أغانيه ، شاخصاً بفؤاده إلى هذه المقيمة فى القرية ترقب عودته وخيالها فى ضميره. وجاراه الراعى فى رنة الطرب . فبث مزمار القصب الأمنية اللجوج وما ينفك طيف الحبيبة السوداء العين ، الريا البسمة، يموج فى إحساسه ، فيغلى له دمه، وتهيج عروقه .

وقامت فادية إلى نافذة حجرتها تجيل العين فى فرائد الخلق وقد راعها التلوين . فما تماثلت الشواهق شكلا ، ولا تساوت السفوح انحداراً . بل ارتقت القمم بعضها عن بعض بفجوات ومخارم مختلفة التعاريج . ونعم بعضها بالخضرة ، وعبس فى بعضها جفاف الصخر ، وكلها متقارب ، متلاصق ، يتعالى من أركان واحدة .

وهذا التفاوت فى المعادلة أهاب بابنة أمين الطريف إلى تشبيه الخلق بعضه ببعض . فمن أبدع الكون ضن عليه بالمساواة ومن المحال أن يظفر بها . فالرواسى غير الأودية ، والصخر غير التربة ، والشجرة غير الزهرة ، والماء غير اليبس . كلها نشأت فى أديم واحد وما تحاكت لوناً ، ولا شكلا ، ولا جنى . وهكذا الناس . انبثقوا من معدن واحد وتباينوا مذهباً ، ومقاماً ، ووجهاً ، وقداً ، وطبعاً ، وثروة . فأين المساواة ؟

وانتفض فى خاطر فادية شبح عزيز عدوان . فهو مثلها من لحم ودم ، الا أنه دونها أميالا فى الجاه وفى النعمة . كأن هذه الطينة النافثة البشر تأبى أن تلدهم على مماثلة وقد أقامتهم كدرجات السلم ، بعضهم دون بعض . فلماذا لا يكون عزيز عدوان صحيح العينين ، غنياً ، سرياً فى قومه ، فيبيت خليقاً بها ؟

وتواردت الخواطر . هذا ما ساءل عنه عزيز مراراً نفسه . لماذا جاء فى آخر القافلة ولم يكن فى الرأس ؟ . . . فبدا تابعاً لا متبوعاً ، معوزاً لا موسراً ، أعمى لا بصيراً ، حقيراً لا وجيهاً ، تاعساً لا محظوظاً . هل كان يضير من جبله لو نفحه بعلالة من سعد؟... وتراءى لفادية أنها تفكر فى عزيز مكرهة على أمرها . فما يحملها على الاهتمام بالمرزوء بأمنه وعيشه وليس من آصرة تشبكه بها ؟... ونفرت إلى صحن الدار تلوذ بأبيها وأمها.

على أن باصرتيها جمدتا ذهولا وقد وقعتا على ناقر العود الضرير. فهو بجانب أبيها يسايره ويلاطفه بارتقاب يقظتها .

وابتسمت وقد لاح لها الأعمى . فلم يقطع مودتها . وحبت إليه تلقى تحية الصباح وتصافحه باغتباط قائلة له : أهلا ومرحباً !

فسقطت إليه كلمتاها سقوط الماء فى الفم العطشان ، فأحيتا فيه الطمأنينة المعتلة . والتفت أمين الطريف إلى ابنته يقول : ما أبرح أعتذر إليه عن إيلامى خاطره، وما أردت له غير الراحة . فليس ما أؤدى إليه إحساناً ، بل إكراماً يدفعنى إليه إعجابى ببراعته فى الحرفة !

فقالت فادية تؤيد أباها فى ما يذهب إليه من جميل الرأى: نحن من يجلون المقدرة حيث يبزغ نورها . فإذا ما كافأناها فما أذنبنا ولا تجنينا !

وخاطباه بلهجة العتاب الدمثة . فأخجلاه ولم يكن يدرى بمَ يجيب . ضاع عن سديد العذر . إلا أن فادية ، وهى المطلعة على ما يحفزه إلى التبرم بالعطية ، صانته من الارتباك وقالت تسوق الكلام إلى أبيها : هل حدثته بما أزمعنا ؟

فقال لها الأب : أوضحى له الرغبة بنفسك !

فالتفتت إلى عزيز عدوان ، المترفع عن الاستجداء مع

صيّاح فاقته ، وبادرته بقولها وقد جلست بجانبه : اعتزمت أن أشترى عوداً وأتعلم به نقر الأوتار ، فهل لك أن تمهد لى إلى المبتغى ؟ ... لا بأس على من يملك الصوت الرفيق أن يجيد العزف الصحيح . فماذا يبدو لك مما أجمعت عليه ؟

فهتف بجذل : أتميلين إلى ضرب العود ؟

ــ أنتِ حببته إلىّ . ووافقنى عليه أبى . تجلى لى فيك الإبداع فتقت إلى الأخذ عنك . أيضايقك أن تأتى إلىّ فتدربنى على أداء النغم !

فالتهب استبشاراً بما تصبو إليه من شهوة . لقى طريقه إليها. فلن يشق فى اختلاق الأعذار كلما همّ بارتياد منزلها لمجالستها واستماع حديثها البليل، وصوتها الأغنّ . قال يهوّن عليها المطلب : لا أراك تحتاجين إلى وقت طويل كى تبلغى المشتهى، وكل ما فيك يدنيك إليه ، صوتك ، ورشاقتك ، وفطانتك . وسأجتهد فى تلقينك الأصول فى أقرب آن . فما هو شهر حتى تبيت أناملك طائعة ، فتجرى بها الريشة عفواً بخضوع ولين !

قالت وهى تتبين فيه المسرة : ومتى نبدأ ؟

فأجاب بمرح يتلظى : الساعة إذا شئت !

وهو يحمل أبداً عوده كما يحمل عصاه وعماه . وضحك الأب وابنته وهما يجدانه على امتثال للرغبة بمثل هذا الطرب

السبوح . قال أمين الطريف : بل ننتظر إلى غد . فأشترى لفادية عوداً تختاره لها بنفسك،وليس من ينوى عنك الخبرة وقد أصبحت من أرباب هذا العلم !

— ولكن عودى معى !

— لابأس بالانتظار إلى غد !

فودّ لو تمّ له فوراً أن يجلس إلى فادية جلسة الأستاذ من التلميذ . فتلمس يده يدها ، وذراعها ، وركبتها . وتفوح فى أنفه طيوب أنفاسها . ويحدثها بلهجة قاطعة تشيع فيها الدالة على اللدونة والحسن . واستوضحته الفتاة وقد راقتها غبطته : أين كنت أمس ؟

فأعلن بصوت خشيان كمن يلتمس المغفرة : دعانى نفر من الإخوان إلى النبع . ومالوا إلى الاستمتاع بأويقات من الأنس فتوفرت على إرضائهم . وليس لى أن أرد لهم مطلباً وهم علىّ كرام الوجوه !

— أما تدرى أننا نرقب ظهورك فينا ؟

فسالت نفسه حنيناً . هل بلغ من القوم هذه المنزلة المنيفة ؟

قال يرتجى الصفح : عفواً عنى إن أكن أمسكت عن ولوج هذه الدار ، وهى أبداً هدفى . فأحج إليها كأنى أزحف إلى مزار ولىّ !

وما حسب أن غيبته ستلفتهم إليه بهذا القدر وهو منهم نملة إزاء طود . وسرّه العتاب . هل وقع من شادية الموقع الأثير ؟ وردّ عن نفسه الحلم الخابى الومضة وما يتماسك على هبة ريح. فهل لمثله أن يعلو فيدرك مرتبة آل الطريف ؟ ... أهون عليه أن يبصر من أن يرتقى إلى هذا الشموخ . وتنكر للخاطر الوعر مكتفياً بأن يلقى من فادية رذاذاً من بشاشة ورفق .

وفزع إلى عوده مما يساوره من وهم . قال يدعو فادية إلى الإنشاد : هل لك فى إحدى الأغانى السماح، فيثمل بها الوتر ، فيجن ؟

فقال أبوها : هاتى يا ابنتى . نحن بشوق إلى الخمر !

فابتسمت ولم تبخل بفرائد حنجرتها . وأبدعت وأجاد ناقر العود . كلاهما سما عن حقارة الرغام كأن الفلك مسبحهما ، وقد ارتفعا إليه بأجنحة من سحر وعطر . وشعر أمين الطريف بأنه فى غيبوبة من متعة . إنها لسكرة لا يكاد يستفيق منها من يجرع أكوابها الطفاح الصباح . وتصاعدت من صدره هتفات الطرب دراكاً كأنه لفرط نشوته فى أنين .

وأفاضت ابنته بأشجى ما عندها . فكل ما يتقد فى صدرها من رأفة وحنان سال على أطراف شفتيها . وجاراها عزيز عدوان فى التفوق، فأعطى كل ما يختلج فيه من صبابة وشوق . وبات

وفادية روحين منطلقين فى المدى الأرحب على أمل، وكلف ، وحبور .

هذه ساعة الشرود فى رحاب الأمانى . ورب ساعة ترجح العمر الملىّ . وانقطع التغريد ، وجمد الوتر ، فأبقيا بعدهما سكوناً من ماتع التخدير وما فتئ الثمل يجاول الأرواح ويأسرها. إنه لجو الخشوع وليد الإعجاب الحفيل . ولم تخرج الأذهان عن غشيانها المرىء إلا وقد تكلم أمين الطريف وهو يخشى أن يتحتع لفرط البهجة. قال : ما أرانى عرفت قبل الساعة السحر الحلال . مرحى يا فادية ، وعوفيت يا عزيز !

وجميع من فى الدار تولاهم الشده . فهم فى غمرة من جلال التقى كأنهم فى معبد . وما انفك الصدى الرخيم يتردد فى الأسماع فيستبقى فى الخواطر النشوة البعيدة الأمد . وما جاولت البسمة الشفاه ، وانتفضت الأفواه تعلن الإطراء ، حتى شعر هؤلاء المفتونون بالأنغام العلوية بكونهم يهبطون من عالم رفيع ، سحيق ، يطيب فيه القرار ، وتحلو السجدة .

وأفاضوا بهتاف الإكبار. ومالوا على فادية وعزيز ينشرون عليهما الأماديح .وأنى للمطبوع على الجهر باليقين أن يخفى وقدة الإحساس المتوهجة فى الحوانى ؟ ... وزادوا ، دون أن يعلموا ، فى رسوخ الروحين فى بسطة الألفة . عزيز وفادية يشعران ، على

رغمهما ، بكونهما موثقين بعضهما ببعض برابطة الوئام الوطيد . وربما كان هذا الوئام، في عرف الضمير ، لفتةمن نديان النزوع .

غير أن ما تنبض به المهجة أمسكت عليه . فما حان عهد الإفصاح. كأن الوجد لا يبرح فطيراً وللاختمار زمن . وأعلنت فادية تهنئ العازف الضرير بطول باعه في فنه : ليس لى إلا أن أبثك محض الثناء . كنت في الشوط المجلى . فسقيت وأسكرت !

واحتالت بقولتها الخالبة على إبداء خلجة من ميولها ، كأنها تتوق إلى إزاحة الستار المسدول على عاطفتها . مع كونها تردد في جلائها وتهيب إقرارها . أحب أم رحمة ؟ ... هذا هو السؤال الحائر ويكاد إعلانه يدمى ذهنها . فتجاهد في الغوص على إيضاح يشفى ارتباكها ولا تسقط على البيان الصراح . أتحبّ أم تشفق ؟ ... إنه للغز يصطرع فيه قلبها ونهيتها ولا تهتدى فيه إلى مخرج جلىّ .

وأبدى عزيز عدوان الزهد في ما تخلع عليه من شكران . فقال يتواضع : إنك لتنكرين نفسك حيث لم يظهر سواك. فأي مأثرة لعزيز في ماجاوزت فيه تسابيح الملائكة وأغاريد الشحارير ؟

وتبادلا التقريظ وكأنهما ينشران ، مكرهين ، ما يمور فيهما من صبابة . وللكلام أحياناً رموز تخرج به عن مدلوله ، وليس البيان فيها مرهوناً بالأداء الجهير .

٣

يالضحكة اللؤلؤ النظيم الثنايا فى العود المستقر بحضن فادية الطريف . ويالبضاضة الأنامل القابضة على المعزف وعلى الريشة . فكأن الترف ، وقد عطف ، لا يسكن جأشه إلا وقد عمّ .

ويالفرحة عزيز عدوان وهو المعلم الندب . ماعرف نفسه فى بهجة تضارع ما ينعم به من جذل ورفاء . فالرغد والرجاوة ملء يديه . وطابت له دنياه كأنه ينهل منها الأفاويق . فلا ضنى ولا كدر بعد اليوم ، والمنى تحبو على يمن ويسر .

وصبا إلى استدرار النهزة . فلن يفوته الانتفاع بما يمهد له إلى المشتهى . وأصلح هندامه وتعطر . له القميص النظيف الحسن الكيّ ، والثوب الخالى من الفتوق ومن الأدران ، والجورب السليم من الثقوب ، والحذاء المصبوغ البادى الجدة . وللمزين أن يغالى فى زخرفته . فيسرّح له شعره ويطيّبه . ويميل على ذقنه بالموسى فيملس وتنجلى غضاضته السمحة .

وجنح إلى حياة أندى وأصفى . فما هنئ به فى جنانه ابتغى أن يظفر به فى عيشه . ولكن هل تنجده يده ؟ . . . ما زاد دخله على ما يبيح له الإسراف . فالقروش الضئيلة ، المعدودة ، هى هى ، وكأنها تمانع فى أن تتهادى على وفر . له أن يأكل ويكتسى . وأحياناً يضيق المغنم بالكفاف ؛ فيلتاع عزيز وتبكى أمه . وتبرم الفتى المغرم بهذا الأمد المحدود وما يتسع لطلقة نفَس . أيهيم بالصباحة المثلى ولا يملك ما يسد به الرمق ؟

وتهكم على مهجته الطامعة فى ما يعدوها . واجتهد فى أن يتماسك، ويسلو وما للبعوضة أن تصبح صقراً . فليقف من فادية الطريف موقف القانع باستنشاق العبير المالئ الجو فوحاً، وما لمثله أن يرصع صدره بناشرة الطيب . غير أنه لا يكاد يجلس بجانب فادية، حتى يذهب عنه ما وطن عليه النفس . فيحس بأنه دون ما يلجّ فيه رشده من ملتمس .

وفادية زادت فى شوقه إليها بما تلقاه به من إيناس ، وبما تطارحه من دعابة . ولمس فى صوتها ليان المخمل ، ورنة الوتر . ووقعت يده على يدها فيما يلقنها ضرب العود، فاهتز كأن يمينه فى رعشة من ورع . وأنى له حيال هذه الفواتن أن يكون حجراً أصلد ؟

وود ألا يسلخ يده من يدها . فلتدم هذه اللمسة الماتعة، الفياضة بالثمل ، المتصلة الأسلاك بالكبد كأنها أوتار تصدح بأشجى نغم . ولم تكن فادية تتحامى ملامساته ولها منها رحيق مصفى لا تفتر له نشوة . وأطال الإمساك بالأنامل وبالمعصم . وقبض على الذراع ونفسه تسيل فى اللدونة والمواهة . وكبر ورجّع . واشتهى أن تفيض روحه وهو غريق اللذة العابقة الأرج .

ويذكر نفسه وما يقدر عليه الحياء فيرتدع وفى قلبه غصّة. ما أبخل الزمن وقد جار عليه فى الحرمان . لم يكن له أن ييأس من فادية الطريف لو احتظى بالبصر . وينخلع عنها وفى صدره كلوم . ويعود إليها وفى ضميره آمال . ما أوسع مهيع الرجاء فى مندلع الأشواق !

وتتظاهر فادية بأنها ناشطة للاقتباس . فتستوضح وتستقصى . كيف تقبض على العود ، وكيف تنقر الوتر ؟ ... ويجود عزيز بالهداية بلا إمساك . فيفيض بأسرار الحرفة غير متورع من إذاعة المستور. لتأخذ فادية علمه كله ولن يخشى منها الإغارة على مورد رزقه ، فتنافسه فى البلغة المكتوبة لأمثاله المجهودين .

وهو لو شاء أن يحبس لسانه عن التبيان لدهمه الكلال . فتراءى له أنه مكره على الجهر بخفايا الصناعة ، كأن فنه مباح لهذه الرائعة فى خاطره الولهان . وفادية المقيمة من الذكاء على دفق

لم يطل عليها أمد الإلمام بمطاوى العزف . فلاينها الوتر . ودان لها العود كأنه ترنح بوقع ملامسها . واطمأن عزيز عدوان إلى جهده كما اطمأن إلى نعيمه . وفادية على دراية بغبطته ، وبها منها مثلها ، دون أن تشير إليها بكلمة، أو أن تتجنبها بحركة يرين عليها النفار والنشوز .

ولما بدا أمين الطريف يسأل عن مدى نجاح ابنته ، متغامزاً وإياها على عزيز غمزات حافلة بالابتسام ، بريئة من السخر ، قال العازف الأعمى بمستطيل الإجلال : لم يسبق لى أن شهدت هذه الطفرة فى ذى نهية . فكأن العلم مطبوع فى الآنسة فادية وقد كادت تعادلنى فى أصول الحرفة !

فقهقهت فادية ضاحكة وقالت : هذا إطراء يا عزيز أراه ينبو عن موضعه ، وما أزال فى مستهل الصناعة !

فأعلن بإيمان المقتنع بصحة ما يبدى : والله ، ما وقعت على من يضاهيك اجتهاداً وكفاية . فارتمى الفن عند قدميك أسيراً !

فقال أبوها راضياً عن نفسه، وقد استطاع أن ينفح الأعمى بما ينقذه من الضنى ، ومبتهجاً بضلاعة ابنته الفطنة : ولكن ليس لنا أن ننسى يدك البيضاء . فأنت صاحب الفضل. ولولاك لم يكن لفادية أن تبلغ هذا التوفيق . فإذا امتدحنا تفوّقها، فهل

نجحد سعيك لتدريبها ؟

فأبان ينتزع من نفسه كل جميل : حاولت فى عدد جم ما بذلت بجانبها من وكد فما وصلت إلى بعض ما أحرزت من شأو فيها . فليس لنا أن ننكر النبوغ ، يا سيدى الكريم !

فعادت فادية إلى قهقهتها وقالت : إنك لترفعنى إلى حيث لا ترتقى بى قدم يا عزيز ، فدعنى فى حضيضى !

فهتف ينكر عليها تواضعاً لا يهدأ جنباه : ولماذ الخروج عن الراهن؟ . . . حفظتك العناية . أصبحت فى إطلاق الرنات من الثقات . ألا اسمعينا بعض ما سموت إليه فى علمك . فهل لمن قضوا السنوات الطويلة فى العزف أن يبزّوك ؟

ودعاها إلى نقر الوتر فامتثلت للمطلب . وعلت الأنغام منسجمة مأنوسة . وأيقن الأب أن ابنته ذات دهاء دهاق لا تغلق به عليها أحاجى المعرفة . وتصاعدت من شفتيه صيحات الطرب .فادية ممن يجيدون السيطرة على العود فى رنينه النشوان . وأذاع أمين الطريف يقرّ لابنته بالدراية : صدق عزيز عدوان يا فادية . إنك لمن المجلّين . ففى ريشتك حسن أداء ، وفى أناملك سلاسة . وأرى عزيزاً قد سكب فى روحك الفن بأمه وأبيه، لا يدخر منه ذرارة . وهو الإخلاص

التمّ والولاء الأوفى . وليس لنا أن نقف إزاء المكرمة موقف المتعامى . علينا لمن يمنحنا من نفسه أن نسهل له إلى مجانينا !

وقبض على راحة العازف الضرير يلقى فيها كدسة من رقاع النقد ، قائلا له بلهجة يعروها رفيف من ضراعة : أرغب إليك يا صاحبى أن تمنع عنى الخيبة . فما فى هذا البدل البخس غير حق لك علينا . فادية أحرزت فنك . ولك فى مقابل عطائك نفحة من عرفان الجميل . فليس ما نحبوك أجراً ، بل طاقة من ريحان لإذاعة الشكر وإكرام الأريحية !

وشعر عزيز بكونه يلمس المال فارتجف . يؤلم ضميره أن يأخذ ممن أعطت . فادية سخت عليه برعشة الوله وليس ما أنالها ليعادل منها لمسة . فكيف يتقاضى بدلا ممن لها عنده حفلٌ من ديون ؟ ... أيبيع حبه وأمله بقبضة من رغام ؟ . . . هواه أسنى وأرفع . قال يغالى فى الرفض : سيدى الجليل ، دع لى منفذاً لطلاقة النفَس . ما أزال مثقل العنق بعميم خيركم ، فلا تزد فى المبرّة لئلا أعيا عن الاحتمال فأشقى . وما أنت بمن يريد لى المضرة . عاهدت نفسى على تعليم الآنسة فادية بلا مغنم ، فلا تخرج بى عن ذمتى وما كنت لها إلا حافظاً !

وسعى للإفلات من قبضة أمين الطريف وقد قلب

راحته متورعاً من مس العطية . فراع الإباء أميناً ، وأوجعه أن يظل حيال هذا المملق الأنوف على كلال . فنبر وفى صوته خشونة من غيظ وإخفاق ، وانتفاضة من خجل : ولكن حقك لن يضيع فينا . نحن قوم لا نرضى أن نحرم أرباب الجهد حسن الجزاء لقاء ما توفروا به على نفعنا . إن تكن ترغب فى أن تأتى إلينا فأنصفنا من أنفسنا . هذا المال بعض ما وجب لك علينا !

وتدخلت فادية تقول : أيروقك أن يذيع عنا أننا نهضم المفروض علينا ، فلا نؤدى إلى أصحاب الحق أماناتهم فى أعناقنا ؟ . . . إذن لسنا من ذوى العهد والوفاء . وأنت نفسك لا ترضى بأن تأتى إلى قوم تداعى فيهم الحفاظ . وهل أقدمت عفواً على تعليمى ضرب العود ؟ . . . لم تفعل إلا وقد دعوناك إلى بذل بعض وقتك فى إرشادى إلى أساليب الحرفة . ولهذا الوقت ثمن لا ترقب منا أن نمسكه عنك . وإلا قطعنا كل ما بيننا من أسباب المخالصة !

وهى تدرى أن ليس ما يؤلمه كهذه القطيعة . فيضحى بكل جسيم لاستبقاء الصلة الوثقى : قال وكلماته تتساقط من شفتيه مرضوضة، لهافاً : هذا جور . فكيف تأبيان على أن أتقيه ؟ . . . ما جئت هذه الدار سائلا ، بل مدفوعاً بولاء

أضنّ به أن يخرج عن موئله . وهل لى أن أبصر جهدى السليم من شائبة الطمع ملطخاً بوصمة الابتزاز ؟ . . . عفواً عن رثاثتى ، ورفقاً بمن يشوقه إجلال المروءة !

ولكن أميناً الطريف شدّد فى الأداء، وإلا بحثت ابنته عن عازف آخر . فارتعد عزيز عدوان فرقاً . أيقضى عليه بالانفصال عن فادية ؟ . . . إن الموت لأطيب مخبراً وأهنأ وسادة . وانحنى تجاه المشيئة الطاغية معلناً بذبول حشاشة : أما وأنتما تصدّان عن مبذول وسعى ، وهو كل ما عندى ، فإنى لأجد نفسى مكرهاً على احتمال الغبن . ولو رحمتمانى لدفعتما عنى المهانة . هذا ذرع المقلّ . وإنه لهباءة إزاء دائم رفدكما !

وأخفى فى جيبه ، بمستفيض الخجل ، كدسة رقاع النقد . لا حيلة فى المناهضة وعليه أن يخضع لحكم فادية وأبيها . قال أمين الطريف راضياً عما انتهى إليه التدبير : لك أن تمضى فى التعليم وقد تواضعنا على المعادلة . فلا سعى بلا أجر وكلنا على غبطة !

فنفر عزيز عدوان إلى الاعتراض . ولكنه أدرك أن ليس فى الممانعة عائدة . فعليه بالمواءمة وهى خير ما يلوذ به إذا ما جنح إلى لقاء فادية . وإلا فالشوق يهيض جناحيه ،

والحرقة تذهب بعلالة الجلد وقد ذوت الرجاوة . وبقيت كلمات العازف الأعمى تحوم على شفتيه ولا تنجلى . ليس للمعدم أن يملك أمره حتى فى مقابلة حسن الصنيع ببعضه ، كأنه فى المليح والقبيح على زراية . وإذا طلب هان . وإذا أعطى خاب . فلا يسقط فى الحالين على مداراة ومسايرة .

وصمم عزيز على التظلم من فادية إليها . سيشكو لها أمره فى إحدى خلواتهما ويرغب إليها الإشفاق على مهجته البالية . وابتعد وفى خاطره كآبة ، وبين أضالعه استخفاف بمنزلته ، وما يهتدى إلى من يكرم فيه نصاعة الروح واليد . فهل يضيم ذا الخصاصة أن ينفح أرباب اليسر بقرص من الشهد ، وهل يضيرهم الارتياح إلى الهدية على تفاهتها ؟

وأنف الكفيف ، المعسر ، من ضميره وهو يمد أبداً يمينه . أليس له عن الاستجداء بعض غناء ؟ . . . وارتمى فى فراشه ، لا يدندن أغنية ، ولا يجبس وتراً . وسألته أمه هل له فى الجلوس إلى مأكله . فأبان أن لا شهوة له فى طعام أو شراب ، وكل ما يجنح إليه أن يغفو بسلام . فوضح لها أنه على ارتماض سويداء . وتمتمت تستطلعه أمره . فسكت وفى السكوت فصل الخطاب . ونام متعب الروح . إنه لشقى حتى فى نعيمه .

وأمين الطريف وابنته ما سعيا لإيلامه وهما يطيبان عن كرم يده . فالحمية تجلت لهما فيه . والولاء كشف ، فى هذا النصير الأمين ، عن جبينه . إلا أنهما يعرفانه فى ضيق . وما دعواه إليهما لسوى انتشاله من عوزه . فكيف يداويانه بدائه وقد توفرا على تبديد فاقته ؟ . . . قال الأب : لكأنه يأبى إلا النضح عفواً بعصارة مجهوده . ولقد بدا لى أشبه بزنبقة الحقل . ما تكلف من يروم الظفر بها سوى قطفها . فلا عناية بإنمائها . ولا بعض لفتة إليها إلا وقد أورقت وسطعت ، تدل على نفسها وتغرى بها . على أننا ما كلفنا عزيزاً فتح عينيك على قواعد نقر العود هياماً منا برنة الوتر ، بل للتحايل على درء تعسه عنه . فما به يضيّق علينا وسعنا ؟

وأظهر أمين الحنق . غير أنه أقرّ عالياً لعزيز عدوان بنبل الطوية . ورضيت فادية عن هذا الشمم المطبوع فى خلق الضرير . إنه لينبوع مكارم . وازدادت إليه نزوعاً . وما انفكت تستعيد فى خيالها وقفته وتردد أقواله . وتعجبت فيه من مزيج الفاقة والأريحية ، فكيف يلتئمان ؟

وأخذت تحس بأنها منه على استحياء وكأنه يعلوها محتداً وسمواً . وما ندّ عنها كونه سيبدو فيها عاتباً ممتعضاً . على أنها ستقاوم فيه نزاهة تنبو عن مهيعها . فأنى يعيش وقد وهب

مكسبه وتخلى عن بدل قوته ؟ ... ولم تكن إلا موفقة فى تخمينها . فولج عزيز عدوان فى اليوم التالى دار أمين الطريف على شحوب وجه ، وفتور خطو . وحدقت إليه فادية وكأنها تتبين فى جبينه غضوناً ، وفى خديه تجاعيد .

وهالتها كمدته . ومشت إليه ترحب به بمنبسط الحفاوة . أما هو فما هشّ ولا بشّ ، بل زفر وقال بصوت تعتريه اليبوسة : أحييك أيتها الآنسة فادية !

وابتسم لها ابتسامة مجهودة . فأمسكت بيده وقادته إلى مقره فى تعليمها . فجلس بذهن ملتهب وعزمة قلقة . وانتشر فيه الغم فقال يجلو شجوته : ما حسبتنى فى هذه الدار غريباً . أفرط أبوك فى الجائزة . هذا إسراف . فحبانى ما ليس لى أن أجمع فى سنة . مع أن إحسانكم لا ينفك يتدفق علىّ . أما تفتأون ترون فى عزيز عدوان مستعطياً ؟

وبكى حظه . إنه لفى عسف عاصف . إذا ما شاء أن يعتصم بالكرامة قيل له : « إلزم حدك ، فأنت غريب عن السماح ! » . وراع فادية أن تبصره يجود بدمعه . وانحنت عليه هاتفة بجزع : عزيز ، عزيز !

فتماسك وقد تذكر أن ليس لمثله أن يطلق الدمع . فصاحت ابنة أمين الطريف بلهفة موجعة : أتبكى ؟ . . .

أيدهمك الأسى ؟ . . . ولكننا ما طلبنا منك الاختلاف إلينا كي نؤذي فيك إباءك . أبى نفحك بحقك ، لا بالصدقة ، وقد وضح له أنك تتكارم عنها . أليس لك أن تعيش ؟ . . . أمين الطريف لا يزعجه أن يؤدي ما عليه . والامتناع من الاستيلاء على بدل أتعابك يجد فيه أبى امتهاناً لشأنه . فلماذا تغفل عن الواقع وتفرض علينا ما لا نطيق ؟ . . . كنت تتألم من الهبة وترى فيها إحساناً ، أما الآن فلماذا الألم وأنت تتقاضى حقاً مقدوراً ؟

وأنجدها البيان فأخرست الأعمى الحمىّ . ما به يشكو وهو يتناول أجره ؟ . . . أيقوى على مجاهدة صعاب الحياة وقد عطل من الذخر ؟ . . . ولكن الخرس المستحوذ على الضرير ما لبث أن تبدد ، كأن ومضة الهدى أنارت الذهن العيىّ . قال عزيز عدوان بجرأة لم يؤمن باتقادها في أوصاله : ما جئت إليكم كي أتعيش يا فادية . فإن ترددي إلى مثوى أمين الطريف لأرحب مجالا وأسمى مرتعاً !

واندفعت كلماته على غليان . مع أنه أرسلها بتؤدة ورصانة. وما خفي على فادية مرماه وقد اهتدت في ملامساته إلى خلجات ضميره . فهو منها على هوى . وأبت أن تلجّ في الاستقصاء عن المجال الأرحب والمرتع الأسمى ، مع لهبة الفضول المتوهجة

فيها . قالت متجاهلة ما تسمع : نبل روحك لا يقعد بك عن الانتفاع بحسن سعيك . فإن تكن تحاذر أن تبسط يمينك للصدقة ، فهل ترتقب من أمين الطريف ، وهو ذو الوفر اللجّ ، أن يختلف عنك فى المترع ؟

وأجادت الرمية . قال وقد أحس بكونه تقهقر فى المصاولة: ولكن أباك سخا علىّ بما حفزنى إلى اليقين أنى ما أزال فى عرفه ذلك المستجدى . مع أنى هنا لمطلب أرفع !

وردد التلميح كأن هذه الميول المتأججة بين ضلوعه تأبى أن تظل على احتجاب ، فاندلعت على رغمه تتحدث عن شبوبها . فاضطرت فادية إلى الاستيضاح مغلوبة على أمرها : وما هو هذا المطلب الرفيع يا صديقى ؟

وعجزت عن كتمان شوقها إلى المعرفة . فلينطق عزيز بما يهيجه . وشعر الأعمى الهائم بحرج الموقف . هل له أن يجلو اللغز ؟ . . . ألا ما يكون نصيبه من ابنة أمين الطريف وقد فشا لها سره ؟ . . . أما تنبذه كالنفاية وتأبى عليه العودة إليها ، فيخسر بها معقد أمله ؟ ... حسبه أن يبلغ من كلفه بها جلوسه إليها .

وبقى السؤال بلا جواب . وبلع عزيز ريقه . بماذا له أن يفضى ؟ . . . أيكشف عن ولوعه بالحسن النديان ؟ . . .

ولكن أنى يحتمل الصدمة والخيبة تدهمه ؟ . . . وماذا يقول فيه أمين الطريف وقد درى ؟ . . . ويلٌ له من الغضبة الماحقة ومن السخر المبيد . وجمد لسانه وانتشر فيه الخوف ، فودّ لو غار بعضه فى بعض . ما به يركب المنايا ؟ . . . واستبطأت فادية بيانه فعادت تستقصى : ما هو مطلبك الأرفع يا عزيز ؟

فلم يبق مذهب عن الإعلان . وأيقن عزيز بكونه فى أدهى ساعة من زمنه . هذه هى الخطوة الفصل . فإما نعيمٌ وإما شقاء . وخضخضته الحيرة . وتراءى له أن أنفاسه استقرت بشفتيه . أيتطاول ، وهو الرضراض ، إلى مستوى الدر ؟ . . . وانتفض لسانه بفيضان جأشه . قال وكأنه يتلو صلاة : مطلبى الأرفع أن أحظى ببعض عطفك علىّ !

وسكت . لقد تفوّه بما يرجح الطاقة . وازداد عمى . وخفق قلبه حتى كاد ينصدع . وخيل إليه أنه تمتم تمتمة هذيان محموم . ورقب اللطمة كما رقب الرحمة . ونظرت إليه فادية فى بحرانه وخشوعه فابتسمت وقالت وما تزال تستنبئ : ولكنك راتع فى عطفى يا صديقى . أتشتهى ما أنت مدركه ؟

ومالت به إلى التمادى فى الإبانة . فأثقلت كتفيه ، وعصرت فؤاده . وما يزال يرى التبر والتراب . أيختلطان ؟ . . .

وجاول ظنه أن الجرأة منقذة أحياناً ، وأن لا عليه وقد عاذ بها فى النجاة من لبكته . قال وفى ألفاظه لجلجة كأن لسانه يتعارج : إنى لأطمع منك فى عطف أسنى ، وما أجدنى حيالك غير مبتهل فى معبد . أحبك يا فادية مع ثقتى بأنى أناطح صخرة !

وأكب على وجهه يشهق وقد تبين نجاط ه غور المهواة فهو من خبيث المعدن وفادية من كريم الجوهر . وهل يجتمع الضدان ؟ . . . ورسخ فى باله أنه من الهالكين . لقد نشر كفراً . ورصد الطرد . ستصرخ به فادية الطريف : « اخرج أيها الوقح . هل ضعت عن نفسك ؟ » . وهمّ بالفرار . فى أى مجهل أطلق عنانه ؟ . . . بيد أنه لم يحس بسوى يدين رخصتين تطوقانه ، وبصوت خضل يهمس فى أذنه : عزيز ، عزيز ، لا تيأس من رحمة ربك . فإن للسماء مسامع لا تنبو عن صرخة الرجاء !

فأذهلته حتى شلك فى نفسه لا يؤمن بما يسقط إليه . ورفع رأسه وودّ فى هذه اللمحة الحاسمة من العمر لو كان مبصراً . فيرى ما يرتسم فى محيا فادية من خلجات الصدق ومظاهر المودة . أصحيح أنها تفسح له إلى مهجتها وقد وقع منها ؟ . . . وتفاقمت فيه الريبة . أذناه تنقلان إليه الكذب .

وآمن وتردد . وانتعش وارتاع . إن فى ما انتفض فى وعيه من القول الأثيل ، الجميل ، ما يحدوه على إنكار كنهه . فادية الطريف لا تخاطب عزيز عدوان بهذا البيان الأثير . الأثيل . فإما ضلت عنه ، وإما خدعه سمعه . وانتابه دوار خالع من ارتباك ورهبة . فهو فى أزمة من ارتياب . وهاله التصديق وخشى أن يتلفظ بما يمعن فى إحراجه . أى سيد جليل هو كى تذيع فيه ابنة أمين الطريف ، أحد سراة إهدن الأكارم ، ذلك النداء المحيي ، الزاخر بالأمل ، كأنه بشرى الخلاص فى أفواه الأنبياء ؟

وشخص له أنه يحلم . فهو ضحية السراب . بيد أن فادية أنقذته من بحرانه ، وما زالت تجاهه ملك الرحمة ، وكررت ما أضحى به الوهم توكيداً ، قالت : عزيز ، لقيت مجيباً . فادية لا تتنكر لهواك !

فخانه النطق واتسع فيه ذهوله . لا ، لم تخدعه أذناه . فياللفرحة المتوهجة اللألاء ما أنداك . ففيك اليمن ، وفيك الرأفة . نزلت على الجديب فأمرع . وتنفس عزيز عدوان عالياً كى يملك سيطرته على هداه . إن الغبطة لتخلخل فيه مكمن الحجا . هل بات من أنداد أمين الطريف فرضيت به فادية حبيباً ؟

وتكلم وما راقه إلا أن يشدو . قال يجاهد تعتعته فى إعلان حبوره : يا طلعة السعد ما أحلى مجاليك . أنلتنى المبتغى الحريز وما تعللت منه بإيماضة . رضيتْ عنى القدرة بعد طول جفاء ، فأحلتنى منها بما أصبحت به أكرم البشر !

وبحث عن أنامل فادية اللدان يزفّها قبلاته المشتعلة ، العجال ، المشتاقة ، كأنه فى سغب وما يفتأ من زاد الوصال على عدم . وقال يستزيد متيمته إيضاحاً : أأكون فى مأواى الآمن يا فادية ؟ . . . أهذا هو موقعى المصون منك ؟ . . . هل سالمنى القدر ؟

فسرّها أن يمضى فى مناداتها بلا لقب كأنه منها على وحدة مستوى . وأجابت تمنحه نفسها عطية خالصة لا تتحرز فيها : هذا هو مكانك فارتع فيه على طلاقة يا حبيبى !

فسطا عليه السهو، بل الجنون. أتهزأ به الليالى ؟... فادية تناديه : « يا حبيبى ! » . فادية بنت أمين الطريف . فما أشهى اللفظة وما أطيب النداء . وانهار عند قدميها كأنه عابد الصنم . صعقه هذا الفيض من النعمى وما كان ليرصد رشاشاً من قطرة . فما للكرائم تسعى إليه أزواجاً ؟ . . . وطبعت شفتاه القبلات على الساقين الغضتين ، الغضيرتين ، كأنهما من ناصع الغمام . وما انفك على ضعضعة . إن السعادة لتطوى

أحياناً النهية . قال وفؤاده ينبض فى كلماته : ما هذه البهجة المفاجئة يا فادية وما كنت لها مرتقباً ؟ ... أما يضحك منى الزمن الساخر ، الخادع ؟

فأعلنت بصوت وئيد ، نغوم ، كأنها ما تبرح تنقر الوتر : بل هو يواليك . فاهنأ . بلغت المنى . أنا أقيم منذ أمد على كلف بك ، وما جهرت بحبى لك قبل الساعة . وهى أوانه . وإنك لتدهش وقد مالت إليك ابنة أمين الطريف . ولكن غرائب الحياة تبيح لك الإيمان بصدق الأعجوبة . نزع إليك جنانى كأنى وإياك على موعد . وغالبت هذا النزوع وشئت أن أقنع ضميرى بكونى على شطط . ولكن الراهن لا يخبو ضياؤه . ولقد استسلمت إليه لا أجبن . وتجلى لى منك أنك تنطوى على مثل ما بى من سورة الأشواق. ورقبت بيانك كى أؤيدك فيه ، كما يرقب العطشان البلل . وأبديت هواك فرددت جوارحى صدى الوله . إننا لموثقان برباط الولوع ، فلننعم بالصبوة !

فكأنها تغنى له اللحن المضمخ بأعراف الجنة . فتهدهده به على شجىّ المتعة . وما استطاع إلا أن يوقن بكونه سعيداً . ولكن إلى متى تدوم سعادته ؟ . . . هل له أن يرسخ فيها فلا تدهمه عثرة ؟ ... وماج فى خياله طيف أمين الطريف

فارتعد . إذا رضيت الابنة فأنى يرضى الأب ؟ . . . أيجيز القطب الإهدنى لأجير من أجرائه أن يصاهره ؟ . . . وتقلب عزيز عدوان بين الأمن والخطر ، بين الحقيقة والحلم . فما إن يستقر بجأشه الأمل حتى يزعزعه القنوط . وانتفضت حنجرته برهبته فصاح : وأبوك يا فادية ؟

فوجمت . نسيت أباها . أى غضبة صاهلة ، ماحية ، ستجلجل فى أمين الطريف وقد خدش سمعه النبأ الفادح ؟. . . وطال الشده . وصال الخوف . فكأن البناء على الملح . انصباب الغيث يقوّضه . غير أن فادية بددت الخشية باعتدادها بدالتها على أبيها . أمين الطريف لا يصدمها فى أمنية مهما غلت وشحط مداها .

ودعت عزيزاً إلى الغبطة . سيهنأ بالرجاوة على مديد شأوها . باتت الطلبة ملك يديه . فانطلق العازف الضرير إلى مسكنه وقد أظلم الليل . وما توكأ فى خطوه على عصاه كأن فرحة قلبه طغت على عينيه فأبصر . وجلس فى مبيته إلى عوده يؤرق به النيام ، ويخلع على كبده المسرة . ظفر بأوفى صبابة . ليعلم الإنس والجن أنه سعيد ، رخيّ البال .

ولولا أن تقبل إليه أمه ، مشفقة عليه من نفسه ، فتدعوه بلجاجة إلى الاضطجاع فى مرقده ، لطوى الليل

حتى منتهاه ، ووقف من الصباح وقفة الترحيب ليبثه شجوه الأغيد . فهو ممن أقامهم الحظ فى الذروة . فقهر الشقاوة العضوض مع عماه التليد ، وذلل لهواه المرتقى الوعر، كأنه ممن أوتوا القدرة على تليين الصخر ، واستنبات القحل . إنه لمن أخيار فرادى ، تفتحت لهم الجنة فى القطوب ! ...

٤

إهدن وزغرتا توأمان . هذه فى السفح ، غارقة بين كروم الزيتون ، متكئة على ضفاف نهر رشعين ، على كتف طرابلس الفيحاء . وتلك فى الرابية ، سارحة بجوار الأرز ، بين الدوالى ، تسبح الله وتمد إلى السماء يداً تعاهد بها على الولاء النصيح .

وكل إهدنى زغرتاوى ولا خلاف . له فى الصيف إهدن يعتلى هضابها ، ويثوى فيها بمسكنه . وينحدر فى الشتاء إلى زغرتا المتبطنة السواحل ويقطن فى مأواه . ولا بد له من إنشاء بيتين ، واحد فى هذه ، وآخر فى تلك ، كى يرضى عن نفسه ويتسع له إلى بدائع التوأمين .

وما أنجبت البلدتان غير الأشداء ، أرباب البطولة والنجدة ، وذوى الحمية والكرم . ضيفهم عزيز . وخصمهم محترز . وفتاهم همام . وفى الصيف تقفر زغرتا وتبيت جوفاء كالأطلال . وفى الشتاء تسكن إهدن ، وتغلّف نفسها بنفسها ، لترقد رقدة أهل الكهف . فلا تستيقظ إلا والربيع

السمح يفتح عينيها بأنامل من ريحان .

وأمين الطريف ، وقد هبت أنفاس الخريف القارسة ، اعتزم هبوط زغرتا وقد شيد فيها المغنى الضحوك . فالبذخ والذوق يلتمعان فيه وما عوّد صاحبه نفسه غير الترف . وأجمعت الأسرة على النزوح عن وكر النسور وقد دهم اخضراره الاصفرار ، وأخذت أوراق خمائله وغياضه تتناثر ، فتجرفها الريح وهى تخشخش فيها إلى كبد الساقية وقعر الوادى .

وليس لعزيز عدوان إلا أن يجرى فى القافلة . فيتوسد كوخه فى زغرتا ، الشبيه بكوخه فى إهدن ، لئلا يغار هذا من ذاك . بيد أن عزيزاً يرى نفسه فى أكرم مثوى ، وما لنزلاء الصروح أن يعادلوه فى أبهة الجلالة . أما يهوى فادية الطريف ، ابنة السيد الأروع ، ذات الرونق الأثير ؟ . . . ومن كفادية فى ذوات الأناقة والطلالة ، والأنس المطبوع ؟

وبدأ العازف الضرير فى نشوة مديدة لا تكاد تنتهى . فيطأ الأرض وكأنه يسير فيها على بساط من فلّ وورد . ويخيل إليه فيما ينصرف عن فادية أنه يسبح على منكب الغيم . لقد ارتقى عن الصلصال الحقير . وفادية مهدت له إلى الاعتزاز بنفسه بما أعطته من نفحات المنى . فمالت به إلى

اليقين أنها ستكون له على رغم الحوائل الصعاب . وكلما جبهها بممانعة أبيها وعدته باجتياز العقبة . فليس ما يحول بينه وبين اليوم البهيج .

على أن عزيزاً ، مع إيمانه بصدق فادية فى الإعلان ، لم يكن يستطيع ، عندما يخلو إلى ضميره، البقاء فى جوه الرفيع . فيطوى مكرهاً جناحيه المبسوطين على مداهما ليأوى إلى نفسه العارية من بواسق الأمل ، الصاحية من شوارد الخيال فيستشيرها فى ما يزخرف له الغد من مطمع . هل له أن يعلو فيجاور السحاب وما فى قوادمه ولا خوافيه علالة من ريش ؟.. بل إن هذا الريش لم ينبت فى الجسم الكليل ، الأمعط ، فكيف يجوب الفلك ؟

إن الرجاء ليهب له الأجنحة فيطير بها . ولكنها أجنحة من وهم لا تتماسك فى اليقظة الفاضحة . وينهد إلى الهرب من غضبة الإعصار، ولا محيد عن هبوب الزوبعة فتجرفه ، وتطرحه على نواتئ الصخور فيتحطم ، وينتثر أشلاء ضائعة المعالم ، مباحة لذوات الناب والمنسر . غير أن قلبه يميل به إلى البقاء فى مدرج الريح ، بل يحفزه إلى اليقين بكونه فى أمان . فليثبت .

ويعبث بنقمة أمين الطريف وفادية ستحجب بحكمتها

الفورة . بيد أنه لا يلبث أن يلتفت إلى نفسه فيزدريها . فهل له ، وهو المسخ ، أن يصبح من أرباب الجاه والصولة؟... وما انفك يندد بهذا العمى الممسك به . إن عيبه فى عرفه لا يعدو كونه أعمى . فإذا نجا من عاهته فقد سلم من الشين . وأنى تطيق فادية أن يتزوجها ضرير لا يبصر طريقه ولا يستجلى فتنتها ، ولا يبدو له جلساؤه ، فتضطر إلى استبقاء فمها فى أذنه ، كى تطلعه على ما يجرى حوله ، وإلى شدّ ذراعها بذراعه كى تقوده فى حبوه ، وإلى مدّ يدها إلى فمه كى تطعمه ، كأنه الطفل ؟

وتثور عليه نفسه . ركب المحال . ويعتزم الصدوف عن آل الطريف . لماذا امتهان المهجة ؟ ... بيد أن هذا الخافق فى جنبه ، الآمر النبضة، لا يأذن فى قطيعة . فادية تحبه ، فلماذا الإحجام عن الجلوس إلى مائدتها ، ومشاطرتها مناعمها ، ولابد أن يجرح التخلف ضميرها ؟ ... ويعود فيقول وما لرأيه فى أمره قرار : ولكنها فى سن لا تدرك بها وجه قلبها . فما حبها لى غير رأفة تجسمت، فتراءى لها أنها ولوع . وغداً عندما ينجلى الستار عن عينيها ستتضح لها الخدعة ، وتشيح عن قزم دميم !

غير أن هذا البيان مع سداده ينكسف إزاء نبضة

الشغف الملحاح . فينقاد عزيز فى مساق عاطفته مغلوبا على أمره . وتنأى عنه هواجسه ليغوص فى سكرته . وتسوقه منازعه إلى فادية فيجلس إليها وفى حنجرته أغاريد . وكأنه يرى بخياله ما فات عينه الإلمام به . فيصف الأفق ، والغدير ، والساقية ، والشجرة ، والروضة ، كأن نظرة فيها . ويخلع على فادية من صادق التشابيه ما يكاد يذهب جلاؤه عن صحيح اللفتة .

وتطرب فادية وهى تصغى إليه فى تشبيه بها . وتستزيده ما يخلب به سمعها من جزل المقال . فيجهر بفيض سويدائه معلناً بمضطرم الافتتان : لو لم يكن لى منك غير هذا البوح بحنينك إلى مثلى ، لكفانى زمنى مشقة الحرمان . فأنا اليوم هنىء البال وكأنى أحرزت البصر . فأشاهد كل ما حولى من بدائع وطرائف وقد احتشدت كلها فيك . وليت يطلقنى القدر من يد البقاء فأموت مغتبط الروح ، وأضاجع التراب على مسرة . فحسب شارب الكأس مصة من بهيج الراح . ويكفى النفس أن تنتشى ببعض أغنية لتستغنى عن مستفيض الصداح . وفى الثمرة سر الشجرة . وأنا ، وقد سمعت من مبسمك ما عالننى بكونك على هيام بى ، تولانى الاكتفاء ، وأمسيت لا أشتهى إلا أن يضمنى ضريحى على اغتباط بما

حزت من مشبوب المنى . وليس لى أن أبقى، فيعتريني من الصروف ما يبدد عنى لذة ما ارتشفت من المنهل الحلو، السلسال !

فهتفت به متبرمة بيأسه المزمن : وأين الصروف فى سمائنا المشرقة ؟

فزفر وأجاب ملتاعاً : إن تكن لا تبدو لك فإنى لأبصرها ولست أخشى سواها . فهى موكلة أبداً بخطوى . فتزحمنى فى قيامى وقعودى . وتسد علىّ طريقى . وأنا منها كالطريدة فى رمية صياد . فإذا أخطأنى سهم فلن أسلم مما تزخر به الجعبة من رهيف النبال . فلا مقامى يشد بى إلى عالى مرتبتك . ولا عماى يحببك إلى من يهون فى إدراك سحر مرآك . أجل، إن فى حسو الخمرة غنى عن البصر بها . ولكن فى النظر إليها تسطع فى الكأس لذة أخرى تعدلها أنا منها على إنفاض . وللزنبقة من طيب الفوح ما ينعش مكتئب الروح ، إلا أن فى التحديق إليها فى نصاعتها، وإعجابها بنقاوتها، متعة أشهى لست منها على بعض حظوة . فأنى تتجنبنى المكاره وهذا نصيبى من حيف الأقدار ؟

فأقلقها التطير الراسخ فى مهجته ونبرت بألم : أنت عصارة التشاؤم يا حبيبى ، وهو ما لا أريدك فيه فتبدد به مرحنا !

فأبدى باستكانة : ليس لمن تجمح به عينه إلى ما يسمو أن يقيم من أمره على طمأنينة . وأنا أعلم كونى أصبو إلى ما يرجحنى مكانة وروعة ، فأنى يهدأ لى بال ؟ ... إنك لتمنحيننى الأمان بمقالك الشبيه بقطر الندى فى الزهرة الظمأى . بيد أنى لا أكاد أنحدر إلى بهرة نفسى أستجليها حتى يتبين لى أنى كملتمس الممتنع . فلا سبيل لى إليك . وهل لأمين الطريف ، أبيك ، أن يسخو بغواليه على الصعاليك أمثالى ؟

وقهقه قهقهة المفؤود . وظهرت له نفسه كالحتاتة . وتعبت فادية فى إعادة سكينته إليه . فما به يتفجع فى زهورة العرس ؟ . . . هل كتب سرمداً عليه أن يحمل منديله لالتقاط دمعه ؟ . . . أما يجيد غير التلهف والندب والرثاء ، فيسكر بعبرته فيما تسيل الخمرة الصافية فى كؤوس الندمان ؟... أما تعوّد الظهور بسوى ريش الغراب ، فتساوت لديه المآتم والأفراح ؟

قالت ابنة أمين الطريف تخرج به عن نواحه : إن الأمل واليأس ليتصارعان فيك . ويدلنى زفيرك على كون يأسك يعلو أملك . مع أن الرجاء أوطد أسًّا وأبقى . فلا يهون حتى فى مكتنز الشدة . وما يهيب بك إلى الانتحاب فى المرح ، وإلى الولولة فى بسطة الأنس ؟ . . . فإن تكن

تجد فى غبطتك ما يرزح به منكباك . فتجزع . فاذكر أن صغير الطير يبلغ أعالى الأطواد كالنسور . وأن فراشة السفح تحوم على أزهار القمة ولا يلتوى جناحاها ، وأن للنملة مدبًّا فى الوادى وفى الأكمة . فمهما صغرت فى عين نفسك فلن تعجز عن ارتقاء المعارج الفاصلة بيننا . ولكنى لست أري مشقة تبعدنى عنك . فأنت فى خاطرى .وليس من هو أقرب منك إلى صميمى . فابتهج ولسنا فى جنازة ، بل فى موكب جزل . أسمعنى رنين الكأس ، وعندلة الوتر ، وأغرودة الشحرور . وأبعد عن أذنى نعاب البومة ، وبكاء الخريف ، وإعوال النائبة . فإننا لفى مجمع أهازيج ، لا فى مناحة تستدر الدموع !

فأخجلته . ما نطقت إلا صواباً . ليس له أن يشكو الظمأ وهى تسقيه من يدها ، وبجانبها الخابية الطفحى ، وينبوع الماء النمير . قال يغالب عياءه وقنوطه : صدقت . إن اللوعة لتنبو فينا عن موضعها . وما كانت لسوى من خار عزمه وضعف إيمانه . فعفوك عمن لم يدمن النعمة ، وما إن والته بعد مديد طمعه فيها حتى رهب أن تفلت منه . فسال دمعه أسى ، وعليه أن يميع سروراً . أضاع رشدى فيضر النوال . فتراءى لى أن زمنى ما وهب لى صفاياه إلا ليستردها .

فيعللنى بمرآها ولا يبيح لى التلذذ بطعمها . وهو شأن كل من ظفر بالعطايا بعد حرمان . أجل ، علينا أن نطرب ، لا أن ننغمس فى الغمة !

وأكب على عوده يبعث فيه الدفء والطلاقة . وجارته فادية فى نقر الوتر فأنطقا الخشب الجاف بالشجو الأريض ، السيّال البشاشة ، الطاغى الفتنة . إنهما ليسكبان لاعج هواهما فى ما يترنم به الجماد من آسر النغم . وغابا فى سكرة الألحان . ولم يشعرا بمن تحلق عليهما مسحوراً بكرائم الشجو المخمور ، المتدفق سجعاً وترتيلا . فالدار بمن فيها أرهفت السمع . وتولى الجمود كل ذى حس وقد حبس الجميع أنفاسهم إكباراً ولذة ، حتى الحيوان والشجر ترنحا بفواتن النشوة المبسوطة .

هذه أصداء الجنة ترددها الأرض فيسكر بها أبناء التراب. ويخيل إليهم لهنيهات معدودة أنهم ركبوا بساط الريح وأشرفوا منه على مباهج السماء . وامتد الهتاف مثقلا بمتماوج المتعة وقد قرّت الأوتار فى سكينتها ، كأن الدنان تستصفى أحشاءها وقد ارتوى بعصيرها كل من حفل بهم المجلس اللعوب الوسنان .

وأقبل أمين الطريف على ابنته وقبلها فى جبينها قائلا

لها بحفيل الإعجاب : أزف إليك خالص التهنئة يا فادية . إنى لأغبط نفسي السعيدة بك وقد نفحتها بالطيب والرضوان !

ودنا من عزيز عدوان يهز يده ويقول بوارف الارتياح : شكراً يا عزيز . إنك لتزيدنى يقيناً بكونك لم تبخل علينا بعلمك يا صاحبي وقد خلعته على فادية كله . وهى مأثرة لا تجحد ، دلتنى على منعة الولاء فيك !

فابتسم عزيز ابتسامة العيّ . هل له أن يفصح عما تقتعد منه فادية الطريف ؟ . . . هذا السخاء عليها بالفن بلا تقتير مصدره نزعتان ، حب الأعمى إخلاصه . هام بالفتاة وأخلص لأبيها فحباها كل ما عنده ، جنانه وعلمه . ولا غنية عن بيان تفرضه المجاملة . قال العازف الكفيف : كل ما نبدى من جهد قليل فى جنب ما أوليتنا من فضل يا أبا حميد . نحن نغرف من بحرك حيث كنا ، وقد ملأت جرارنا ودفعت الكربة عن أرواحنا !

فاستحيا أمين . ليس يطيق الشكر فى ما يراه عليه مقدوراً . إن لم يتوفر أمثاله على جبر الخواطر الكسيرة فمن لهؤلاء البائسين المناكيد يدرأ عنهم الضر ؟ . . . فأعلن يقصى عن نفسه منسكب المديح : ما أرانى قمت بما يدعونى إليه الوسع وما أبرح على تفريط فى نصرة المروءة . وأى شأن لى

فى دارى وقد و لجتموها وهى مثواكم جميعاً ؟ . . . أمين الطريف
أخوكم لا سيدكم ، وأنتم شركاؤه فى كل ما يقرّ فى يديه !

وهذا السماح الأبلج ليس غريباً عن أمين . نزلت الرأ
جأشه فسالت يده ندى . وما لقى فى سامعيه غير من يشه
بالمعروف وقد لمس البر . فالمكان موئل خير ورحمة . واستطاد
والد فادية أن ينفح العازف الضرير ببعض ما يحس به أ
الولاء لا يضيع . بيد أنه تحامى الصدمة وسيجبهه عز
عدوان بالرفض . وخطر له أن يهدى إلى الأعمى الأ
ما لا يجرح فيه نفحة الشمم والعفة . فنزع من بنصره خا
المرصع بثمين الياقوت معلناً : للمجهود راجح الوزن عند
يا عزيز . فهل لك أن لا تخذل صديقك أميناً فى بعض
ما يذيع وارف مأثرتك ؟

وتناول يمينَ الأعمى وزانها بالخاتم . ورهب فى عزيز
الانتفاض والصدّ . غير أن عزيزاً أمسك باليد المحسنة إليه
وقبلها . وانتشر دمعه على خديه وقال : شكراً للمقادير وقد
أقامتك لى أباً . فمن يرفق به أمين الطريف فالحظ خادمه !

ونفر إلى عوده ينطقه بتسبيح الوفاء والسخاء . أبو حميد
ركن قويم فى معقل الحفاظ . وارتاح والد فادية لسكون
الأعمى إلى العطية وكان يخشى هبوب الزوبعة . وابتعد ومن

توله عن مجلس العزف يخلونه للعودين الشاديين . وهدأت
الأوتار بعد إجهاد . وغمغم عزيز قولته : هل رضيت عنى
يا فادية وأنا أطأطئ الرأس لحكم أبيك ؟ ... جاد علىّ
بخاتمه فأبديت الامتثال ولم أصدم شهوة الكرم . وما ابتغيت
إلا أن أوضح كونى ذلك المطيع الطامع فى رضى سيده عنه .
أمين الطريف سيدى . وأنت مولاتى . ويا لهناءة هذا العبد
وقد أسعفته الطفرة فى إحراز عطف سادته فرفعوه إليهم ،
وأجروا عليه عوارفهم ، وكسوه مطارفهم ، فبات ذا مكانة
ونبل !

وبحث عن يدها فقبلها وما ينفك يحس فى حضرة
فادية بأنه لا يعدو كونه أجيراً . غير أنه أجير محظوظ
وقد رتع فى بحبوحة النعمى . وليس لسوى أرباب العز أن
يبلغوا من ابنة أمين الطريف ما بلغ من رفيع الخطر .
وهو إذا قبل يدها إقراراً بسيادتها فما تناسى أمره كحبيب .
فجمعت قبلته بين الرق والشوق . وإنه لرق فى الحالين ،
والهائم عبد قلبه . قالت فادية الطريف : ما فتئت أعالنك
بكون قبول الهدية شبه مقدور ، وردها إساءة لا يندمل
لها جرح . وما ينزع أبى إلى الحط من منزلتك فيما ينيلك
بصلته . فو، أمين الطريف من مناعة الطبع ما يسمو به عن

الإزراء بالكرامات . أما أن تكون عبداً فهو ما دحضه طب
فعالك ، وقد دللتنا على أن بين جوانحك نفس كريم حر !
فانسكبت مهجته على أسلة لسانه وقال يكشف
لواعجه : فادية ، ما تعلمت عفة الضمير في سوى
المغنى الزاخر بالمحامد . فالبيئة طبعتنى على غرارها وأطلة
شاهداً من شواهدها . وأى فضيلة تنبو عنكم وقد و
المفاخر على مداها ؟ . . . فالجاه ينبع فيكم . والأر
تتباهى بانتمائها إلى حماكم . فتح أبوك صدره للواردين ف
منه أفاويق البذل والرفق ، وما كنت فى سوى الرعيل ال
من المنتجعين . بل أرانى فى الطليعة وأنت تحجبسين على
قلبك . وتحشدين فى إسعادى حليتيك ، ريعان ال
وغضارة الحسب . ويا لرغادة عيش عزيز عدوان وقد و
له دهره أطيب ما عنده .. فساق إليه الطهر ، والأناقة
والشرف ، واللدونة ، واليسر . وما كان للمقعد أن يهت
إلى رجلين سليمتين لولا بقية من أعاجيب . ففى حنينك
معجزة صرف ما أجد لها تأويلا فى سوى رحمة السماء . ا
للمصاب بنظره ، وذات يده ، أن يرجو الوثوب إلى الذ
لولا قهر المحال ؟ ... فالحرون فى هواك بات سلساً
والصعب ليناً ، كأنك خضدت فى نزولك إلى عزيز عد

الحاجز الممتنع . وهى مبرة الحنوّ الأثيل وما أقع لها على ما يجلو كنهها . فنى الخلق حفل من أسرار ليس لأبناء التراب أن يقبضوا على مفاتيحها المستعصية على ضحايا الفناء !

فأيدته فى مذهبه الحق . فى مكامن المجهول من الألغاز ما يقف حيالها علم الإنسان حسيراً . وإلا فما أقامها على شغف بمن يتقاصر عنها أرومة ورونقاً ؟ . . . فهل لها أن تسكن إلى مودة أعمى ، مملق ، ناقر عود ، ولها من المعجبين بها ، والطامعين فى إحرازها ، العديد الضخم من أرباب المحتد الباذخ ، والغنى اللباب ؟

وما كانت إلا راضية عما أزجاها إليه طالعها . وهل لها أن تتخطى المكتوب ؟ . . . فكما نشأت فى حجر أمين لطريف بدافع المشيئة المسترة العليا ، أحبت عزيز عدوان دون أن يكون لها فى أمرها يد . فهى تخطو حيث تدعى عفواً إلى الخطو لا حيث تريد . وقد يخيل إليها كونها صاحبة الشأن القاطع فى مصيرها ، ولكنها على وهم . إن هى إلا لعيبة بيمين هذا الوارف الدلال ، الساحب أبداً ذيل التيه ، المدعو القدر . قالت : ليس لنا أن نذهل عن أنفسنا بالنظر فى أحكام الزمن علينا ، وهى غوامض لا تنقشع عنها ستائرها . بل علينا أن ننعم بروافد النهزة المؤاتية . وذو العقل لا يضيع

عن حاضره . فمن أطلق البشر قطيعاً يرعى فى مسارح الوجود
وقادهم فى متعدد السبل ينعمون فيها ويشقون ، يتحالف
ويتصارعون ، يفوزون ويكبون ، مال بنا إلى التلاقى فى صم
الشوق ، فلنقتطف السعد الموفور من مجناه وهو مباح لنا !

وانعقدت الأنامل على الأنامل . وترطبت الشفاه بالش
وما برحت على ظمأ . فلا ارتواء ولا اكتفاء . وهتف عز
عدوان من كبد تستعر حنيناً : يا رحمة الله ما أصفاك وأسمال
عرفتنى ضعيفاً فشددت ساعدى . ومنطفىء البصر فأنر
بصيرتى . ومكدوداً فأنعشت قلبى . ومقطوعاً فحبوتنى الأنس
وحقيراً فأنلتنى الرفعة . هدمتنى النوائب فبنيت ما انهار
نعيمى . ولقد طال عتبى عليك بطول نفارك عنى ،
وثناياك تتكشف لى عن رضى فلم يبق لى إلا أن أؤمن بد
نصرتك . فأنا الغصن اليبيس المورق بعد ما أوشكت الفأ
أن تقطعه وتلقمه النار . أنا البنفسجة الذابلة فى الزا
الموحشة ، وقد صوّحها القيظ ، فبللها قطر الندى و
عنها الانتثار أوراقاً جافة ، كفلول المهزومين فى معركة البقاء
أنا الثمرة الناضجة الطيبة فى مرذول الأشجار ، فقطفتنى أك
يد وقد أبت علىّ أن أسقط فى مناقير الطير وأشداق الحشرات
والتفّت يسراه على خصر فادية ، وألقى رأسها إلى كتفه

وما فتئت يمناه قابضة على يمينها . وقال بشجو غرّيد : أيقنت الساعة أن المعادلة فى البشر ليست ضرباً من المحال . فمن أنشأ الكون من جبال وسهول وأغوار ، وقضى على الناس بأن يعيشوا طبقات ، لا يضيق به أن يجمعهم ويقيمهم على مرتبة متساوية . فالعناصر تختلف قيمة ، إلا أنها واحدة فى جوهرها . وقد تمتزج فتتوازى . ولا يضير الوردة أن تلتصق بعنقها الشوكة وهى منها . إنى لأعلم بكونى عدوت طورى والحب يوثقنى بلك ، غير أنى آمنت بالطفرة . فالحظ يهب اليمن للمعدم ، والنبل للمهين ، والقوة للحسير . وليس لى أن أنكر يد الحظ فى ما أرتع فيه من شأن وهناءة . تبارك الله وهو يأسو جراحى وينفحها بالبرء المنّان !

ونسخ من ذهنه الهاجس المرتاب . فهو لسعده ولذته ولن يتقاعد الجسور عن بلوغ مناه . فالقمة ليست وقفاً على صحيح الرجلين وللأعرج أن يبلغها متوكئاً على عصاه ، وللكسيح أن يرتقى إليها دبيباً وزحفاً . فالجهد المقرون بسماح الزمن حليف النجاح .

ونام عن طمحات القدر الغادر . وركن إلى قلبه وغده . فكل ما يتراءى له من موفور الغبطة دله على كون الزجاوة تمأمن من طوارئ الأحداث ...

لبنان شطران . شطرٌ ارتضى العليقة ، والصخرة والهواء البليل ، ورسيل الماء ، وشطر حنّ إلى اليسر فاغترب يحفزه الجد والإقدام . ولقد توغل فى الأقاصى يجود عل بسعيه ويستدر غاليها . فهو فى كل مكان كالنور والظلام إلا أنه نور وقد حمل مشعل العلم يضىء به ويهدى . فما نز قطراً إلا كان فيه رسول إخاء وعرفان .

فى أفريقيا يربض لبنان البلد الضيق الوثاب ، المتو الذكاء . وفى أميركا ينتشر هذا المجاهد السبوح الشأو ، الصاد العزمة . وما خلت منه أوربا وهو فى عواصمها وثغور ومجاهلها . ولا عزّت عليه أوقيانوسيا المتطايرة جزراً وقد ر منها فى كل دسكرة . فتوغل فى قلب أستراليا ، وزيلن الجديدة ، وفيليبين . وامتدت به القدم إلى الشرق الأقصى من هند وصين ويابان .

لكأنه روح الله انتشر فعمّ . ومن العجيب أن ينبس هذا الشعب الضئيل فيملأ المعمور . وهو أنى كان لا ينس

وطنه . فيظل فى نهمة من فضول إلى أنباء بلد هجره ويشوقه أن يعود إليه . فالحكم من يقبض على أعنته ؟ . . . والقرية من يسوسها ؟ . . . ويأبى أن تفوته أخبار الناطور ، والشاة ، والعنزة ، والسنديانة القائمة فى أطراف الضيعة كالمهجور لا يلقى حوله غير أساه .

وزغرتا أطلقت إلى المهاجر القوافل تلو القوافل من سواعدها المجدولة . فهم فى ما وراء البحار ألوف تمور كالكتائب المجندة . وما يبخلون على الأهل بجنى اليد ومكتنز العطاء . ويرجع فريق منهم إلى أرض الآباء والأجداد بالأموال الجزيلة . وبعضهم يبدو كى يقع على من يتزوجها ، ثم يلجّ فى الرحيل ، كأن جميع نساء العالم لديه دون ابنة قومه ، اللبنانية الزهراء .

وهو حنين الدم إلى الدم . وشوق الطبع إلى الطبع . فتمترج العادات وتتلاقى . وتتفاهم الأرواح وتنجلى الأحساب . والميل إلى الانصباب فى بوتقة الأعراق متأصل فى كل قوم ، لا فى لبنان وحسب . فيروق من يجنح إلى تشييد وكره أن يقرّ فيه على راحة . ولن يجد صبوته فى سوى قرب من تتصل به بوشيجة المنبت . فيعرفها وتعرفه . ويشتمّ فيها ريح بلده . وتوثق بعضهما ببعض ذكريات واحدة ، هى فى عرفه أمنع

رابطة لاستبقاء المودة والوئام .

ويوم احتفت زغرتا بوفود حاتم منظور عليها حيّت ي
أبناءها المهاجرين ، المتطايرين عنها إلى كل صوب كأنه
ينهدون إلى غزو العالم . فاندفعت إلى لقاء العائد على متو
خيولها . واقتعدت العُقل والكوفيات رؤوس بنيها . والتف
القدود بالأعبئة . وبدت فتياتها بأهازيجهن وقد شابهن جآذ
الصحراء بعيونهن السود المكحولة ، وبقاماتهن المياسة المصقولة
وبخطواتهن الرشيقة الخطرة .

وتلوّت الرماح بأيمان الفرسان كأن فى قبضة كل منه
لساناً مندلعاً من مشبوب النار . ولزغرتا وما حولها من بلا
الأرز ، وعكار ، وبعلبك ، صلات وثيقة بالبادية
فالعادات العربية الصرف متوطدة فيها ، وكأن القوم قبائل ذوات
بطون وأفخاذ يرين عليها روح العشيرة . فهم يد واحدة ف
السراء والضراء ، وأرباب أنفة وحفاظ . لهم فى الأخذ بالثأ
سمت القدامى وما تبدلوا عنهم فى الغارات . وإذا عبدوا الآ
فما أقصوا عنه بعيداً الوطن والبطولة والسماح .

والعُقل والكوفيات على سواد لون . بل إن هذا السوا
يصبغ القوم فى الصدرة ، والقميص ، والزنار ، والسروا
القصير الذيل . كأنهم فى وقار دائم يشحون به على الابتذال

وما خرج عن هذا الزىّ غير عصبة من الجيل الجديد سطت عليها بهارج الحضارة فقادتها فى المهيع الغربى ، الحديث الشكل والوجه .

وبدا حاتم منظور فى إخوانه صقراً طويل الجناح ، رهيف المنقار والمخلب . فهو هو ابن الأرز البار وما لوت الغربة من شموخه . ولا أذلت من نقاوة جبينه صلابة الجهاد . فالسمرة الصافية كلوائح الفجر سالت فى قسامته . وجبهته العريضة دلت على وهج فطنته . وعيناه الحادتان ، الوسيعتان ، المتقلبتان على مضاء وحلم ، أظهرتا اعتداده بنفسه ، وإن هو إلا من أصلاب النسور . وقامته الطويلة ، الراسخة الجذع ، الجانحة عن البدانة ، جهرت بكونه سليل ذلك المطمئن المنيع البديع .

وتكلمت السعة فى مظهره ومهزّته . فما قنصته الهجرة حقه ولا أزرت بصدق نضاله . بل جادت عليه بالوفر وما كان حاتم له حافظاً ، وقد شبكته بسميّه الطائى بعض أسباب . راقه أن يحشد المال ليجيد نثره . فيسخو به غير مدخر منه لنفسه إلا الكفاف . بيد أن هذا الزاهد فى الدينار الحظ أن يجلو عنه . فما إن ينفق العشرة حتى يقع على . وفى هذا الفيض من النعمة استقرت بيمينه ثروة

مغبوطة . فتراكم عليه الخير فى تجارته فى البرازيل كأنه على بحر طمى . فما إن تطغى عليه موجة من يسر حتى ترفدها موجات . وليس لليمن ، وقد حالف ، سكون واسترخاء .

وزغرتا عرفت فى ابنها العائد سجية الكرم ، ودفقة الإقبال . فحنت إلى لقائه كأنها فى تحية بطل من أبطالها ، رافعة له الرايات ، شاهرة العوالى . وأفاضت بالحداء والهتاف : فمن عصائب فى أهازيج . ومن أسراب فى أغاريد . كأن زغرتا فى لقاء فاتح ، أو فى عرس قطب صنديد . ووقف فيها حاتم منظور وقفة الشكور المبسام . وكادت عيناه تغرورقان حيال الإيناس المنشور . لم يبخل عليه بنو قومه بباذخ التكريم وما غابت عنهم حظوته السامقة وأريحيته الدهاق .

ورفرفت عليه أوراق الزهر كأجنحة الأمان . وتساقط عليه منثور العطر غيثاً ناطقاً بنداوة الترحيب وما توارب زغرتا فى عاطفتها . ولوّحت الصبايا بمناديلهن مبتهجات بعودة الغانم المنصور وما يزال فى غضاضة الشباب . ورمقنه بعيون يتأجج فيها الشوق وما ندّ عنهن أن هذا المقبل بطبل ، وزمر ، لم تقيده أغلال الزواج .

وتحدث الزغرتاويون عن أخيهم العائد بإعجاب وعقدوا عليه الأساطير . وساءلت النساء بعضهن بعضاً بملحاح

الفضول عمن وقعت منه من فتيات بلدته ، وفيهن من ذوات الروعة نخبة من الزواكى تتواثب على قوة أسر ودل . وأقيمت لحاتم المآدب ، وتصدر المجالس ، وشهد ليالى الأنس تغنى له فيها الظباء الشوادن على ألحان أوتار عزيز عدوان الضرير .

ولقى عزيز لدى حاتم منظور كل رعاية . فخصه بالمال طفاح اليدين قائلا له : أنت مضرم مسرّاتنا يا صاحبى ، وكأن لا حياة لمحافل بهجتنا إن لم تخلع عليها رنات عودك الخضال !

وأشفق عليه وأكبر جهده وقال فيه : علينا جميعاً أن نظاهر هذا الموتور الحق على كسب رزقه . فإذا شقينا ساعة فى التحصيل شتى أضعافها . وإنى لأنظر إليه وريشته تثير الأنغام من قلب الجماد الأصم فيدهشنى صبره على زمنه . فهو أصدقنا سعياً ، وأمضانا كفاحاً ، وأجدر منا باللقمة المبتلة بالرغد !

وأكثر من دعوته إليه . وتحامى تجاهه من إظهار رأفته به . فإنه ليكرمه كعازف متفوق . وروى عزيز لفادية الطريف ما يلقى من إعجاب حاتم منظور . فالرضى عن فنه مدعاة إلى فخره . وتمادى فى سرد مكارم المغترب الراجع إلى الأهل والخلان . وفادية سمعت وارتاحت إلى الأماديح .

هذا مقحام عنيد يشق طريقه بمضاء إلى روائس النباهة . وأبوها حكى لها عن حاتم ما دل على الاطمئنان إلى همة فتى الإقدام والمروءة . قال أمين الطريف : ما رأيت من يرجحه فى الأريحية يا فادية . فكأن السخاء أرخص ما لديه . فالذهب يرشح من بين أصابعه كيفما امتدت يمينه . لكأنه دفقة من دفقات الجود !

وأمين زار الفتى مهنئاً . وبدا حاتم يرد الزيارة . وخطرت له فادية فى أناقتها ، ووعى لطافة بيانها ، فشاقه الرواء الساطع النور . ولاين وداعب . وطال جلوسه إلى الرونق المطبوع . ونهض للانصراف استحياء من الإطالة وبوده لو رسا . وابتعد وفى عينه تمثال من نصيع البهاء ، وفى خاطره تفكير . لماذا رجع إلى قومه ؟ . . . هل وقع على المنشود ؟

ولاحت له الفتيات سيولا تندفع على شعلة من نضارة وضياء . غير أن وسامتهن لم تبدد من خياله طيف فادية . فما زالت ابنة أمين الطريف وجه الحسن المبسوط . ولم يجهل مكانة أبيها القطب المهيب . واستطلع أمرها فما سقط إليه غير مستعذب الإطراء . فادية فى أرفع مستوى من العلم والتهذيب ، وقد صانها أبوها من كل زلة ، وصانت نفسها من التفريط فى الحشمة والسمعة ، وما تنفك تحرص على وجهها النقى .

وجاءه من يدعوه إلى التماسها من أبيها . هذه خير من يجاول ناظراه من ذوات الملاحة والفطانة والفضيلة . ما تبذلت ولا ماعت . وبخل بها أبوها فأودعها أكنافه كاللؤلؤة الثمينة فى أمنع حرز . وحاتم منظور نشط إلى الصبوة . فادية أكرم ذات نداوة اختلجت فى باصرتيه . وأزمع أن يطلبها من والدها . وعلت لشهوته غمغمة تجاوب صداها فى مسمع أمين الطريف .

وأمين لم يتعجب مما سقط إليه . فما حاتم منظور أول من كشف عن الرجاوة وابتغى فادية زوجة له . غير أن أميناً صدّ عن إجابة من سبقت لهم فى المجال خطوة . فما يكون منه تجاه فتى الحمية والجود ؟ . . . وراز المطلب بتؤدة أهل النظر . فليس من السهل إقرار مصير فلذات الأكباد . وتجلى له فى حاتم موئل أمن ، ومعقد ثقة . فالشباب الريان يدرج على سعة من فياض النعمة . فإذا ١٠ انتهت إليه فادية فلن تشقى وتهون .

وما يشتهى الآباء للأولاد إلا أن يسعدوا . فيواكبهم فى غدهم الخصب والرخاء . وجلّ ما رغب فيه أمين الطريف لابنته أن تمضى فى عيشها الرفيه . فتقع على من يمهد لها إلى حياة من طمأنينة أشبه بما ترتع فيه فى ظلال أبيها من خفض .

وعالن من حدّثه عن ملتمس حاتم منظور بأنه لا يتنكر للأمنية . ولكن عليه أن يتداول وابنته خمير الرأى ، فتدلى فادية بصريح النزوع .

وأمين الطريف مع استوائه فى أسرته على مطلق سؤدد ، وفصل خطاب ، وليس لكلمته مردّ ، ولا لإشارته نبوة ، يتوق إلى الظهور حيال أولاده بمظهر من يبادلهم المشورة . فيقف على ميولهم فى ما يعتزم قبل أن يبت ويجزم ، وخصوصاً فى ما يتصل بهم من أمر . وجنح إزاء فادية إلى استطلاع رأيها فى ما يعرض له فيها . أترضى بحاتم منظور رفيق عمر ، وأليف صبابة ؟

وقام إليها على وارف ابتسامة ، فإذا بها جالسة إلى عزيز عدوان تحبس عودها . ولاح له أنها ممتلئة روعة كأنها فى أكمل محاسنها . وأشرقت عيناها وقد توهج فيهما نور وخمر ، كأنهما هيكل من سحر يفيض جلالا وأسراً . وليس لمن تقعان عليه أن يسلم من السجود مستنيماً إلى عظمة الفتون .

ونقرت عودها . ورافقت النغم بصوتها المضمخ بعبير الخمرة . فترنحت لها حتى الأزهار فى الآنية . هذا عيد فى الجنة . ولمس أمين فى ابنته تبديلا وقد تبين منها أنها على ثمل ، كأنها جرعت من عصير الكرمة الكأس الدهاق . فهل دبت

فى عروقها نشوة الهوى ؟ . . . إن فى هذا الصوت المجنَّح من دفق الحميا بما يجلو متعة الشغف العريق . فمن أحبت فادية ؟ . . . هل سعى إليها حاتم منظور بعد الأوان ؟

وخاف أبو حميد من اندلاع الشوق فى مدّات الصوت وليّاته . ما ثمة شجو خلىّ . وحدج ابنته بعين قلقة . فمن هو المستأثر بلدونة حنينها وبينوع قلبها البكر ؟ . . . وأبصرت أباها فما برئ خداها من وقد الاحمرار ، كالنار تزداد وهجاً كلما زيدت حطباً ، بل كالشفق أمعنت فى تلوينه قبلة الشمس المودعة . آلمت خفر الأفق بعناقها فاحمرّ خجلا وقد استحيا .

وابتسمت فادية لوالدها ونهضت تحييه . فطبع قبلة فى جبينها وقال يكرر هتفة الإعجاب : أمسيت من نقر العود على ضلاعة المبدعين . وهو ما لم يدهشنى فيك وقد انطويت على مرهف البراعة . ويشوقنى أن أنقل إليك حديثاً جاءنى عنك . فهل لك أن تأتى إلىّ فى حجرتى بأذنين سامعتين وخاطر طليق ؟

فارتعشت قلقاً وكأنها أدركت ما يشتهى أن يجاهرها به . فما ثمة غير حديث عن زواج . ولهجة أبيها دلتها على ما ينغش فى صدر أمين الطريف . وكرهت الإصغاء إلى بيان أبى حميد وسيسلخها من هواها الأثيل . فليست تهيم بسوى العازف

الأعمى وهو فى عرفها خير من تجمعها به صلة من ولوع .
غير أن ما انطبعت عليه من برّ الوالدين نزع بها إلى التلبية
فقالت وهى تبتسم ، على حين يرتجف قلبها : حبًّا وكرامة
يا أبا حميد !

ونهضت تستأذن من ناقر العود . وأحس عزيز بأنه في
غير موضعه ، فقام يدرج إلى مبيته وقد أخلى المكان للأب
وابنته . رابته هذه الخلوة . فعلامَ تنطوى جوانح أمين ؟ ..
هل وفد عليه طالب زواج يبتغى فادية ؟ . . . ورسا في
ذهن الأعمى الهائم أن حاتم منظور رنا إليها ، وأنها ستكون
له . وأدمى قلبه الخاطر الحاطم ، وآمن به كأنه يلمس الكارثة
بملء يديه . وشعر بأن حبلا ينعقد على عنقه فيكاد يخنقه .
أفلتت منه فادية الطريف .

وضرب الأرض بعصاه يستهدى وبصيرته الرهيفة الإحساس
فى شبه عمى . وكاد يضل عن طريقه وهواجس السوء تتقاذفه ،
كأنه الأرجوحة فى يمين مهووس . ما عوّده حدسه الشطط .
وسرت فى عروقه خلجة باردة . فهو فى اضطراب والتياع :
ولكن أتخلع فادية ذمته وتنفضه منها ؟ . . . ليس يراها
تقدم على هذا الكفر وهو دون سجيتها الصدوق .

وجاءه من يدعوه إلى إحياء مجلس طرب ، وله العطاء

السمين . فاعتذر كارهاً . إنه لمريض . وخرجت كلماته من شفتيه معتلة محمومة ، كأنه يعانى وطأة داء مهيض . نفسه لا تتسع للبهجة وقد جاولتها رهبة عاصرة كالكابوس . فالشر لم يقع ، ولكن مهجة عزيز عدوان تمثلته واقعاً ، كأن له من نهيته رائداً يفسح له إلى معرفة الغيوب .

والبصائر أحياناً نفاذ إلى الحق . فيتجلى لها الغد بدافع الحس كأنها عيون ترى الدفين الوشيك النشور . وما أخطأ عزيز عدوان فى بوادر تخمينه . قوة الوحى فيه صدقته النبأ كأنها تبثه اليقين . فما حدث أمين الطريف ابنته فادية عن سوى حاتم منظور . قال يمهد إلى البغية : أنت فى مستهل النداوة يا ابنتى ، وما زلت فى بكور الربيع . والأنظار تحوم عليك معجبة بنضارتك . وحبا إلىّ فى التماسك عدد جم من فتياننا ، جلهم من الزهرة . غير أنى كنت أراك لا تبرحين بعيدة عن الخليق بك . أما الآن فشاع فى ضميرى أن الموعد حان . وليس طالبك من الطالعين علينا فى كل غدوة ، وهو ممن لا يجود بهم الحظ أبداً . وكنت أعقد الصفقة لولا الرغبة فى استطلاعك الرأى ، لئلا تقولى إنى أستأثر بلبلك . فلا أبيح لك المجال إلى ميولك . فماذا ترين فى حاتم منظور ؟

فجرضت بريقها . ما رقبت من أبيها غير هذا البيان ،

وقد جلته لها مهجتها اليقظى . وانتفض فى وعيها خيالان حاتم منظور وعزيز عدوان . وما غفلت عن المحسوس فالشقة بعيدة بين الأعمى والبصير ، بين الفقير والغنى بين الحقير والوجيه . عزيز فى رثاثة جيب وقميص ، على حين يرفل حاتم منظور فى يمن ويسر ورحابة وعز . حبيبها الكفيف لا يكسب قوت يومه إلا وقد استحلب الصخر ، فى حين أن النعمة تتمرغ فى عتبة حاتم وما تشتهى إلا أن تدوسها قدماه .

غير أن ابنة أمين الطريف ملكت روحاً يميل بها إلى إدراك الغنى والجاه الكامنين فى مطاوى النفوس ، لا البادين للعيون . ففى أعماق ضمير العازف الأعمى كنز من رفعة وحفاظ لا تعدله فادية بثروة من نضار مهما رجحت وسمت . وإنها لترى عزيزاً أبهى وأغنى وأوفى من حاتم ، مالئ بلدتها ، وشاغل الأذهان . وما نسيت عهدها ، والحرص على المواثيق من شيمتها . فليس ما تواضعت عليه وناقر العود الضرير مما تذهب به روعة ، ويمحوه وفر .

قد يكون حاتم فى خلق الأباة الغيارى . وإن هو من سوى هذا الرعيل كما بدا منه وعرفت عنه . غير أنها أحبت عزيزاً والحب ستار دون كل إغراء . بل هو أبعد إغراء وليس

ما يدانيه فى الفتنة . وفادية تحب فتاها على فقره وعماه ، فأنى تشيح عنه ؟ . . . ولاحت لها غثاثته نعيما حافلا بالكرائم . وتعامت عن فرائد حاتم منظور وليست تهواه . قالت ترد على أبيها : شكراً لوالدى وقد أقامنى منه بمقام الراشدين ، فاستشارنى فى أمرى . وما كان لى إلا أن أؤيده فى دنوالوعد ، لولا رغبة فى نفسى تقعد بى عن حاتم منظور !

فراعه مقالها . واتسعت عيناه وفتح فمه وجمدت فى أساريره البسمة . من سلبه فادية واستقر بسويدائها ؟ ... وشاء النطق والاستقصاء فخاف أن يقع على ما ليس يرضيه . هل اختارت ابنته فارسها ؟ ... وارتبك أمين الطريف . فمن هو الغانم الموفق وقد جهله أبو حميد ؟ ... أهو من الصفوة ؟ ... وأقلقه أن تكون أسفّت ابنته فى من أوثقها به فؤاد هاالبكر . ولكنها ما عوّدته الإسفاف . وطغى عليه ملحاح الفضول فاستفهم بجذر الخشيان مع شديد ثقته بفادية . هل تأخر حاتم منظور عنك يا ابنتى ؟ ... ألا من بلغ مناط الثريا فاستهواك ؟

وانحبست أنفاسه فى صدره على رهبة وشوق إلى الإلمام بالواقع . من اختطف منه فادية دون أن يدرى ؟ ... ليس يعرف ابنته على صلة بسوى العازف الضرير . فهل أحبت فادية عزيزاً ؟ ... وسخر أمين الطريف بهذا الخاطر المبتذل

وود لو لم يعرض له فى بال . ما به ينحدر إلى درك الإثم ؟ ...
ورصد بيان ابنته وكأن حياته موقوفة على ما يفيض به المبسم
البليل . قالت فادية دون أن ترتبك فى الإيضاح : نفسى
تأبى علىّ هجر أكنافك . فالاستقرار بظلك تلتفت إليه
شهوتى . فهل يبخل أمين الطريف على ابنته فادية بالضيافة
وهى بعض مكارمه ؟

فما سكن إلى ما تجلو من عذر . فالنزوع عن حاتم
منظور مصدره باعث آخر. قال يشدد عليها فى الإعلان
لا أراك تكشفين عن خفاياك فى ما تذيعين . هناك من يحن
إليه صميمك ، فأزيحى عنه الستار كى يعرفه أبوك . فإن يكن
من معدنك ، أو ممن ترجى لك السعادة فى أفيائهم ، فهو
لك . ولينطلق حاتم فى البحث عمن لا تزال ترقب ومضة الرجاء،
ولن يشق فى الاهتداء إلى ما ينشد من منى . من هو المتغلغل
فى جوارحك ؟

وانتظر الإيضاح وفى عروقه نار . هل أذلت ابنته شموخه؟...
وفادية ، ذات الطبع الصريح ، نهدت إلى البيان . فلتحدث
أباها بصادق منازعها ولتتبين موقفه منها . ولم تكن تجهل
أن الرفض نصيبها ولن يؤيدها أمين الطريف فى هذا المبوط
البخس . على أن لها قلبها يتشفع فيها . قالت وقد صممت على

مجاولة الإعصار : أبى يعلم أن للأفئدة وثبات مجهولة المنبع . فلا يحس المرء إلا وقد تلظى على رغمه بوهج الحنين . فيفقد سيطرته على حسه وتخبو نهيته وقد دوّخها هواه . ويميل إلى حيث لم يكن يشتهى أن تتوطد قدمه . وأنا مع يقينى برفيع مكانتى ، وبسحيق شأو أمين الطريف والدى ، أحببت ...

وأمسكت عن الجهر بالاسم كأنها رهبت فى اللحظة الفاصلة الارتماء فى فوهة الخطر . ودرى أبوها مما أسهبت فيه بأن الانحطاط وقع . فصرخ من كبد تفور : مَن يا شقية ؟

واحمرّ وجهه غيظاً . وشهر قبضتيه للكم والضرب كأنه حيال من يرغب فى صرعه وتهشيمه . فانطلق الاسم عفواً من مبسم فادية تجاه هذه الدعوة الآمرة إلى الإبانة . قالت دون أن ترهب سوء المغبة : عزيز عدوان ، يا أبى !

فتصاعد العواء من حنجرة أبيها . واستطلعها ما أفاضت به كأن فى أذنيه وقراً فلم يسمع : من ؟ ... من ؟!

فنكست بصرها وغمغمت بدافع الصدق الراسخ فيها ، وبقوة إيمانها بهواها الملحاح : عزيز عدوان، ناقر العود الأعمى!

ورقبت أن يطيحها الزلزال . وغاب أمين الطريف عن نفسه وهو يوقن أنها جادّة فى ما أعلنت . وهاج كالملسوع فى قلبه وفى أنفته . فأغار كالزوبعة على ابنته يطوّق بقبضتيه

جيدها ويعصره وما يروم سوى خنقها . وغلت فيه نزواته فبات لا يبصر ولا يدرك ما يقدم عليه . وزمجر زمجرة الضياغم فى بطون الغاب ، وهو يود لو اتسع له إلى نثر الأرض شظايا فى بؤرة العدم ، كى يمحو ما يلمّ به من عار . داست منه ابنته أكرم عنوان . ألا من أحبت البلهاء ؟ ... وهدر والضغينة تدمدم فيه : بمن شغفت يا عاثبة ؟

وسمع من فى المنزل فطفروا إلى مصدر الزعقات . ولاح لهم رب المكان يخنق ابنته بلا هوادة فى استلال روحها ، والفتاة تتلوى بين يديه على فضلة من رمق . وما دروا الحافز إلى هذه القسوة وكادوا ينكرون ما يرتسم فى عيونهم . أيجنح أبو حميد إلى القضاء على ابنته المدللة ؟ ... ولكنه يؤثرها على قبيل . فماذا ارتكبت من نكر حمل على هذه الخشونة فى التأديب ؟ ... وهبوا يفصلونه عنها صائحين : عفوك يا أبا حميد . تكاد تقتلها !

فنبر باحتدام يستشرى فيه : ابتعدوا عنى . لن يسلم من يحول بينى وبينها . دعونى أختطف أيامها . هذه مجنونة وجنونها سيقضى على شرفنا . أبيحوا لى طلاقة يدى فيها !

وعلا شدقيه الزبد . وتطايرت كلماته من شفتيه ثائرة متراكمة ، يزحم بعضها بعضاً . وأبعده من حوله عن ابنته ، ولكن بعد فائق الجهد . وحملوا الفتاة إلى حجرتها يلقونها فى سريرها

ويجتهدون فى إنعاشها . وأشرفت فادية على الموت . فخارت قواها وأحست بمداركها تضمحل، وبالظلمات تطغو على روحها . وانتابها غشيان غاب به عنها المنظور الملموس . وهفت الأم إلى الأب تصيح به مرعوبة : ماذا فعلت بها وقد ضاعت عن صوابها ؟ ... هل قتلتها ؟

فأعلن وهو يرتجف حنقاً : ما وددت إلا أن أراها مائتة فهى خبلاء . لو عرفتِ بمن تهيم لساعدتنى على محوها . فهى على شغف بعزيز الأعمى !

فاختلجت واستفهمت بمتفاقم الذعر : ماذا تقول ؟

فأجاب بمديد التهكم والألم : لست أختلق . فهى على كلف بعزيز عدوان . والنبأ سقط إلىّ من شفتيها فيما كنت أحدثها عن رغبة حاتم منظور فى الزواج بها !

وأطلق قولته حافلة بالاحتقار والمرارة . فشكت امرأته فى صدق ما يطرق أذنيها . وهتفت تنكر ما يجاهرها به : لا أستطيع الركون إلى ما أسمع . فمن الراهن أنك جهلت مرماها . وهل لابنتنا أن تكبو هذه الكبوة ؟ ... أين كرامتها وحجاها ؟

فقصف كالرعد : لقد نحرتهما لأجل من لا يليق بأن يكون من خدمها . فهل وقعت على ما هو أدهى ؟ ... كأن تعبنا فى تثقيفها همسة فى صخب العباب . ألا كيف تجرأت

على هوى ينزل بها إلى الحمأة ؟ ... هل دعيت إلى قتل أبيها وتلطيخ محتدها ؟

فارتبكت الأم وناءت بحمل المصيبة . كيف ترضى فادية عن هذا الدله المعيب ؟ ... أما انتخبت من جميع فتيان زغرتا ، وكلهم من الزهرة ، من يعلو عزيز عدوان مكانة وشباباً ؟ ... وانتاب الذهول ، الشبيه بالمس ، الوالدة الحائرة . وخافت على زوجها أكثر منها على ابنتها . قالت وكل ما فيها ينبض هولا ، وقد لمست فى بعلها الأسى المجتاح : إن تكن تسعى للحط من منزلتنا فلا خرجت من إغمائها . لتكن غيبوبتها مطلقة الأمد !

وران القهر على الوالدين ، فتجهمت أساريرهما وقلقت فيهما مكامن الرفاه . أى جنون صارخ يدفع فادية إلى هذا الحب الممتهن ، الذميم ، وفيه تقويض أسرة ، ومحو عز وجلال ؟

٦

أمين الطريف حبيس الزاوية لا يبرحها . فألقى رأسه بين يديه وأطرق كأنه يكابد أثقال النوازل على بعيد فدحها . من كان يحسبها تبخل به على الهوان أول من يطوى فيه سمو الحظوة . ولكنه لن يطأطئ هامته للذل الشادخ وفى يمينه سلاحان قاطعان فى الذود عن الأنفة . فإما إكراه فادية على الخضوع للرغبة ، وإما قتلها .

والقتل ليس مستهجناً فى بلدة تتيه بنصالها ورصاصها . وما أمين الطريف بمن يتورع من اختلاس الأعمار انتصاراً للأنفة . فإن تكن ابنته تجنح إلى وصمه بالشين فلتنزل بطون الأرماس . ولن يشفع فيها كونها نطفة من صلبه . واجتهد فى طمس النبأ . فيا لخجله من بلدته زغرتا ومن بنى قومه الزغرتاويين وقد دروا . أتعشق ابنته ناقر عود أعمى؟ ... ولعن ساعة الرحمة . لم يكن له أن يشفق على العازف الضرير ، فيجيز له تعليم فادية العود كى يحسن إليه . فالإحسان ينقلب أبداً إلى جحود ، كأن البشر غير جديرين بالرأفة .

على أن التبعة لا تتناول عزيزاً بمقدار ما تصيب فادية . فكان عليها أن تدرك منزلتها حيال من لا يدانيها فى جاه ولا نعمة . وما حداها على النزوع إلى بائس كفيف لا يرجح خدم أبيها مقاماً ؟ ... ألم تملك حياله صلابة التماسك والترفع عن الهفوة ؟

وأزمع الأب المفجوع بحميته ، وبخطره ، المسير إلى عزيز نفسه . فيدعوه إلى الرحيل عن زغرتا إلى حيث لا يبدو له غبار . وله فى مقابل هذا المعروف جائزة تكفيه مشقات الزمن . ولكن أبا حميد تحرّز من ولوج مسكن الأعمى ، لا احتقاراً وإعراضاً ، بل رغبة فى الكتمان . فليس لزغرتا أن تلمّ بالنبأ المنتهك الحرمة ، البعيد الدويّ . وآثر أمين الطريف الانتظار . فلا غنية للعازف عن المجيء إلى فادية . فيخلو به ويحفزه إلى الهجران . وإذا مانع فلتتفجع عليه نفسه ، ولن يكون نصيبه غير حفرة فى الصلصال .

ورصد أبو حميد ظهور ناقر العود فى المثوى الرحيب . وعزيز عدوان ، وقد قضى ليله فى غمرة من الهواجس السحم ، لم يطق البقاء بعيداً عن فادية . فشاء أن يعلم ما خاطبها به أبوها من خفيّ . فأى سر همس به فى أذنها أمين الطريف ؟ ... هل من يطلبها زوجة له فيسلب عزيزاً روائعها ؟

وشخص للعاشق الضرير أن زمن الأنس ولّى ، وأن البلاء انساب إلى الهناءة يقرض صفاياها . فلن تبقى له فادية . وأنى تبقى النعمة فى قبضة المسكين ؟ ... ولجّ فى بلوغ الدار المخيمة على أنقى لؤلؤة فى عقد الوسامة . ودخل يضرب وجه الأرض بعصاه ويبالغ فى التحية . فقام إليه أمين الطريف بنفسه يرحب به . وانتشرت الدماثة فى ألفاظ الحفاوة ، ولكن بمقدار ، وحدقت باصرتا الأب المرضوض المهجة إلى العازف الأعمى ، فإذا به على سهوم ، كأن ضميره أهاب به إلى الحذر من الغاشية المنذرة بالاندلاع .

وارتجف عزيز عدوان وهو يسمع والد فادية يحييه . وكأن نبلة غرزت فى كبده وليس من عادة والد فادية أن يعترض طريقه . فهل وقع المقدور؟... وأحس بأنه فى دوار. وجهل أين يلقى قدمه . وتراءى له أنه على فوهة مهواة توشك أن تبتلعه . فما لقيه أمين الطريف ليزف إليه بشرى ، بل لينعى إليه قلبه . أتكون فادية أطلعته على ما يوثقها بناقر العود من وشائج الحنين ؟

وأزرى أمين بميل ابنته . إن حاسة الذوق فيها لعلى إصغاء . أتهيم الزنبقة بالشوكة ؟ ... وهل للنور أن يحتجب فى بطن حوت ؟ ... ليس عزيز عدوان إزاء فادية غير ذرارة على نفيس

الياقوت ، غير حصاة خشنة بجانب تمثال من الذهب الحرّ ، غير ورقة صفراء فى الأملود الرطب . فما للورقاء تسقط على حبة جوفاء مرذولة ؟ ... فهل للشمس أن تنزوى فى جحر ؟

وتبين للأب المنكود أن العمى فى ابنته ، لا فى من تهوى . فما عزيز عدوان ، على عماه ، من سوى ذوى البصر الصحيح ، كالبزاة الناعمة بالنظر الحديد . وأمسك أمين بيد الكفيف ببعض الشدة ، قائلا له : هل لك فى مجالستى لبضع هنيهات يا عزيز؟

فخيل إلى الضرير أن كل ما حوله يميد به . واستسلم إلى قبضة أمين الطريف كالمجرم إلى وثاق رجل الأمن . وأيقن بدنو ساعته وقد حلق ، وهو الركيك ، المنتوف الريش ، فى مسابح النسور . وساءل ضميره إلى أين يقوده الأب القاطع الكلمة ، المبرم الحكم . هل تجلى له المكنون ففزع إلى بالإدانة ينتقم بها لعرضه المصون ؟

وخاف عزيز عدوان على فادية لا على نفسه . وما هى نفسه ؟ . . . قطرة ماء فى ظامئ الرمل . أما فادية فإنها لعالم من معجزات . فهل افتضح أمره لدى أبيها ووقف أمين الطريف على الحب المعقود ؟ . . . كل ما هب فى هذه اللمحات الخواطف ، فى ذهن عزيز ، من تخمين ، جنح به إلى اليقين أن الهتيكة وقعت . والد فادية نفذ إلى صميم

المحسوس . ولكن ماذا حلّ بفادية ؟... هذا جلّ ما التفت إليه العازف الضرير .

ونجم له بعين خاطره أن أميناً دخل به حجرة ضيقة ، مظلمة . أتكون جدثه ؟ ... لا بأس أن يموت على أن تسلم من أحب . ورقب أن تتساقط عليه الطعنات دراكاً . فيسيل دمه ويلفظ روحه جزاء اجترائه على المحارم . ولكن هذه الطعنات لم تنزل به . وسمع صوت أمين الطريف يقول بعذوبة يكسوها التهكم الحادّ : اجلس هنا ، هنا يا عزيز !

وأدناه إلى مقعد من لين القش . فرسا فيه وقلبه فى شديد الخفقان ، كأنه على وشك الانفلات من مناطه ، ونفسه تكابد سكرات الموت ، وكأنها تذوب . وجلس بجانبه أمين الطريف يقول بصوت هادئ ، وإن تكن تجيش فى مطاويه النار : اعتقد أنى ما أسأت إليك يا عزيز وأنا أعهد إليك فى ابنتى لتعليمها نقر العود ، فما بك تسىء إلينا يا صاحبى ؟

فتجلى لعزيز عدوان فى ما يسمع العتاب الممضّ ، وقد شف حلوه عن مرّه . فإذا انبسط عن سماح فما أخفى الوعيد . وارتاع الضرير وغار بعضه فى بعض ، وقال بوهلة : ما قمت بسوى ما دعوتنى إليه يا سيدى ، وأنا رجل حريص على الأمانة . فادية أضحت من المتفوقات فى إذلال الوتر لسلطان ريشتها

الغيداء ، وذلك حسبي !

فأعلن أمين الطريف وما يزال الهدوء المبطن بالجمر يمشي في بيانه : ولكنها تفوقت في ضرب آخر من ضروب المعرفة . وهو ما وددت ألا تكون أستاذها فيه !

فدمغه . وتعتع الكفيف تحت وقع الهزة هاتفاً كالمستعيذ بربه من شر إثمه : سيدي ... سيدي !

فغلى أمين الطريف بركاناً جياشاً وقد نضا عنه ستار الحلم وصاح : بمَ تعتذر ولؤمك وضح ؟ ... كنت تختلس من ابنتي وقت تعليمها لتصرفها إلى الحنو عليك . ولمْ يلبث هذا الحنو أن بات هياماً . ألا أين ما ادعيت من رفعة عن النكر ، وما تظاهرت به من جنوح عن الإسفاف ؟ ... أتلعن الحسنة وتجترحها ؟... فمن أنت تجاه فادية الطريف كي تطمع فيها؟ ... أما ترى أنك ابتغيت ما لا طاقة لك عليه ؟ ... وأنى للهرّ أن يصبح نمراً ، وللثعلب أن يحاكي الأسد ؟ ... أريد أن تعلم أني ما وكلت إليك تخريج ابنتي في العزف شوقاً إلى إجادتها نقر العود ، بل رغبة منا في الإحسان إليك . فأبينا أن نجرح كرامتك وأنت تنفر عن الصدقة ، فابتكرنا هذه الوسيلة في الحدب عليك . وبمَ كافأتنا ؟ ... بشرّ ما يجازي به الكنود المشفقين عليه . فهنيئاً لك وفاء المعروف وقد رميت إلى

تحطيم أجنحتنا . أفما تدرى أن استطالتك علينا ، وأنت من خبيث المعدن ، لطخة لا تمحى فى جباهنا ؟ ... ألا ما هذه القحة المستهترة تتوقد فيك ؟

وودّ لو طمس فيه شعلة الروح . فليمت المتجاسر على تدنيس النباهة وثلم الشموخ . وعزيز عدوان ود لو انطفأ تحت وقع الإهانة الماحقة . فما أبقى منه أمين الطريف ذرة سليمة من العطب ، ولا خلجة بريئة من وقر الغضاضة . وخانه النطق فجهل ما يعلن . لم يدع أبو حميد إلا حقاً . ائتمنه على خير وديعة فصبا إلى الاستئثار بها . فأين الحفاظ ؟ ... أليس للأمانة ميثاق مصون ؟

وانحنى عزيز وقد لوت الحتيكة ظهره فكادت جبهته تلتصق بالأرض . وللمرة الأولى شكر القدر وقد أزجاه إلى دنياه أعمى ، فلا يبصر جهامة أمين الطريف ، ولا شزر عينيه ، ولا امتقاع لونه . وأوضح مكرهاً ، وليس عن الإيضاح غناء ، فقال بذل المقرّ بشناعة عملته : سيدى ، غفرانك . كل ما صارحتنى به وجيه سديد . فليس لمثلى ، وأنا من جفته النعمى ، أن يدرج فى طريق السعد . لا ، ليس لناقر العود الأعمى أن يتعزى عن فقد عينيه بفرحة قلبه . فهو ممن كتب عليهم زمنهم التعس . وعليه أن يستقر أبداً بغياهب البؤس فلا يتخطاها إلى الضياء .

على أنى ، لضعف فى نهيتى ، حاولت أن أشق عن مهجتى غلاف الشقاء . وجهلت أن المسعى علىّ حرام . فعفواً عن ضلالى وحمقى. ولكن أنى لى أن أجلس بجانب الوردة فأكتفى منها بالشوك يا أبا حميد ، ولا أستنشق عبيرها الزكى؟ ... أنى لى ، وأنا المقيم أبد الدهر على ظمأ، أن أدنو من الينبوع النمير ولا أبلّ ريقى بقطرة من مائه الرسيل ؟ ... وفادية ... بل الآنسة فادية ، ولا حق لى أن أتلفظ باسمها بما يقيمها منى على وحدة مستوى، كانت الوردة لروحى ، والنداوة لقلبى ، فتجرأت على استرواح العرف ، وأزمعت نقع الغلة . ولا جناح على من يصبو إلى الروائع يا سيدى والمرء رهين بما جنى . أما وأنت لا ترانى حقيقاً بفوح الطيب ، ولا بقطرة الندى ، فسأفرض على نفسى الزكام والعطش ولا أعدو ضيق نطاقى . ولتسبح ابنتك فى جوها الرحيب. وليس لمن يملك جناحين طليقين أن يخالق الأمرط ، الكليل !

وشاع فى مقاله الألم الخانق . فهو يشكو حيف الزمن ويطأطئ الهامة لحكم الدهر المستبد ، الغدور . فما عاش فى متعة غير محظوظ . وعادت الشفقة تأخذ من أمين الطريف لعزيز عدوان . فمن حق هذا الأعمى أن يخلع عنه القطوب . ولكن ما قضى به القدر الغاشم لن ينقضه مخلوق . وما من مخلوق

يملك قياده وهو المجرور . وأمين الطريف من هذا القطيع المقبل على رغمه إلى دنياه ، والمحتجب عنها على رغمه . فأنى يعاند مشيئة القدر المدلّ ؟... وجرى فى التيار المفروض ، يدعو عزيزاً إلى التنحى عن الينبوع ، وسدّ منخريه عن فاغم الطيب . وليس للعنزة الجرباء نصيب من عطف ، ولا علالة من لين .

قال والد فادية وقد شاقه من العازف الضرير النكوص عن محجة الولوع : كنت أريدك على الامتناع من إضرام النار فتكفينا مؤونة إطفائها . أما وأنت توقن بأنك جازفت فلقد أنلتك عفوى . على أن تحبو إلى فادية وتعالنها بأنك كنت تمزح فى ما بثثتها من شوق . وسأقيم فى الحجرة القريبة فأسمع ما تطارحها من بيان . واحذر المواربة وليست تجديك !

فخضخض روعه التهديد وما احتمل وقعه . غير أنه مكره على الإذعان وهو فى حضرة قطب مطاع ، وما تبرح الزعامة ممدودة الرواق فى لبنان . قال يكشف لأمين الطريف عن نفس لم تزل مع إكرامها لسادتها معتصمة بإبائها : سيدى الجليل ، ليس لك أن تتوعدنى كى أمتثل لأمرك . فحسبك أن تدعو كى أجيب . ما دام حبى لفادية لطخة عار فى ناصيتها فسأمحو بيدىّ الاثنتين هذا الشنار وأستبقيه لنفسى . فما يضيق عزيز

عدوان، وهو التاعس ، بمتراحم المشاين تعلو منكبيه . فمن عاش في النكد ، وعششت في دمه الفجيعة ، فلن ينبو عن ويل آخر يزحف إليه . فالبحر لا يغص بساقية تصبّ . فيه وهو الفاتح صدره لجميع الأنهار !

فتصامّ أمين الطريف عن اللوعة الحافلة بالوخز والجديرة بالرفق . وقال وما يرمى إلى سوى إنقاذ سمعته وابنته مما يساورهما من دميم المكروه : قم الآن إلى فادية وانقر لها عودك . وصارحها بأنك لم تكن جاداً في هيامك بها . فما ابتغيت التودد إليها لسوى مجاهرتها ببليغ سلطانها على الأرواح . ولا تخجل من الإفاضة في مسمعها بضؤولة شأنك إزاء بسطة جاه حاتم منظور. كن صادقاً في الإبانة وأظهر لأمين الطريف أنك من الحراص على الولاء !

وعاد يمسك بيده بقوة قاهرة . ورفعه عن مقعده وسار به إلى حجرة فادية وهو يقول له : سأودعك غرفتها . وسأجلس محتجباً عنكما لالتقاط الحديث . فبادلني إخلاصاً بإخلاص !

وانتهج حياله الرقة الناضحة بالشدة. لا ندحة عن الامتثال. وشعر عزيز عدوان بالجو الرهيب المنشور حوله . فالضغط ملموس يفرض الخضوع . وإلا فالموت فاغر الشدقين . غير أن عزيزاً لم يكترث للموت وهو يعيش كالأموات . هم في

ظلام وهو فى ظلام . وجل ما يختلف به عنهم أنه ميت متحرك .
يمشى ويأكل ويتكلم ويسمع . بيد أن الوجود ينأى عنه
أن يفصلهما شاسع المراحل . أما الموت فأيسر وأدنى وهو ملء
راحتين .

وما غاب عن الضرير المفقود أنه يمشى إلى قبره . أمين
الطريف يزجيه سراعاً إلى الاضمحلال . وراعه أن يصدق
حدسه . حاتم منظور منافسه فى سيدة جأشه وضميره .
تفجعت نفسه على السعد المتلاشى ، كأن المنى ومضة فى
ليل . تنير الطريق لامحة خاطفة ، وتظل العتمة مسدولة
ستائر ، فضفاضة الأذيال .

٧

فادية فى سريرها النفيس ، الضاحك اللون كالشروق المو
بالأرجوان ، تحاكى زهرة من الفل فى مهدها الباسم .
أنها زهرة حردة ، متهدلة الأوراق ، كأن بينها وبين منسك
الندى وتراً أقامهما على وحشة ونفار . ونضبت الروعاء ، المكد
اللب ، غشيانها عنها والتفتت إلى نفسها ، فهالها ما يمور
ذهنها من رؤى لا يزال يغلفها ضباب من تخدير ، يهادن
الجلاء . ولكنها ليست رؤى وما ثمة غير ظلال من حقائق وقعت
ولا تنفكَ صورها تموج فى البال .

وتذكرت فادية . فهى على خصام ووالدها . أمين الطري
أرادها لحاتم منظور فأزاحت عن سويدائها القناع . وما
الصميم غير رسم لفتى أعمى ، نزل قلبها كما تنزل تماثيل الأ
الهياكل ، وتحنى لها الجباه . وفار فائر الأب وقد أخذته سو
الحنق . وقبض على عنق فادية يستجيز لنفسه الخنق . فرضي
الهائمة ، الصدوق ، بالموت تؤثره على الكفران بهواها . وفى الح
النصوح إيمان لا تتزعزع فيه الضمائر المفطورة على يقين وثبا

وتمنت فادية ، وهي تستفيق من غيبوبتها ، ويتجلى لها ما انتابها ، لو ظلت سادرة في الإغماء . فلا تخجل من أبيها ، ولا من قلبها ، بل تنطلق إلى ضريحها شهيدة حبها . فلا يشقى والدها وقد شغفت بمن هو دونه ، ولا يعيرها عزيز عدوان خفر الذمم وقد ماتت فداه . على أن حظها يأبى عليها إلا أن تتعذب ، فما طارت عنها أنفاسها كي ترقد بسلام .

وخضد روعها أن تؤلم أباها . أمين الطريف لم يبخل عليها بالرفق ، ولم يمنع عنها الكريم الحريز ، فما يحملها على رض روحه ، وحطم جبينه؟... ولكنه قلبها وهو سيدها . وحكمه عليها صارم ، قاهر ، لا يتنفس عن هوادة ، ولا يوائم في رشد . فإذا ما ابتغت الخروج على سلطانه دهمها كلال يتمشى في جميع أوصالها . واصطرعت فيها قوتان طاغيتان ، إكرام أبيها ومجاراة فؤادها : وشددت على نفسها في أن تتمثل عزيزاً في رثاثته وعماه ، في حقارة شأنه وبؤسه ، في جهله وغضاضة منتماه ، فما ازدادت له إلا ألفة ووجداً ، كأن فقره زينته ، وجهله فخره ، وعماه فضيلته . لقد بهرتها ريشة الحب المزخرفة ، الغرارة ، وإلا فكيف تنسجم الأرواح ؟

وأبصرت أمها فأغضت استحياء . ما أقدمت على جهد مبرور كي تجرؤ على التحديق إلى من حولها . كما أنها ليست

مجرمة وما اقترفت الإثم . فلماذا الخوف واللبكة ؟ ... ورنت إلى أمها ، لدن اقتربت منها ، بعين جامدة يشيع فيها الفتور والألم . ولم تعانقها الأم كالمعتاد سعياً لإبلاغها كونها غير مطمئنة إلى البادرة الشاذة ، والعرف ينكرها . وتمتمت زوجة أمين الطريف بلهجة عاتبة : هل أضعت صوابك ؟ ... أين رجاحة نهيتك وما توفرت على تهذيب بلهاء ؟ ... أقلقتنا جميعاً عبثك بالمألوف ! .

وما أبدت لها نزراً من الأسف على ما أصابها . وهو الدليل على كونها تؤيد زوجها فى ما ذهب إليه من تعنيف وعنف . ولم تجد فادية غير الدمع جواباً . فهى فى حرقة تتشظى عبرات : قالت الأم وما زالت تبدى العتب ، كأن لا رقة فى جأشها حيال أسيان الدمع : ألا كيف خطر لك أن تنفرى عن كريم محتدك ؟... هل جهلت مستوى أبيك ؟ ... يعاند عقلى فى الإيمان بكونك ارتضيت ذلك الأعمى حبيباً . فأين عيناك ؟

فأبانت وهى تغور فى النشيج : ولكنى أحبه يا أمى !

فاهتزت أمها هولا . وسرت فى عروقها رعشة باردة أحست بها أن قواها تميع استكباراً للخطب الناهك . وقالت بفائر السخط : أما تنفكين تفيضين بالهذيان ؟ ... ألا يحمر وجهك حياء

وأنت تعلنين كونك على هيام بالمسخ ؟ ... ألا أين إجلالك كرامة أبيك ؟ .

فما استطاعت أن تنفى ما فى ميلها إلى عزيز عدوان من غضاضة على أبيها ، القطب الإهدنى . لم تنشأ فى حجره كى تقوض مكانته . على أن حجتها على الاستمساك بعزيز ، ناقز العود الضرير ، ظلت هى إياها . إن الحب ليشدها به . وفى الحب من الأحاجى كل مبهم مغلق . فلا يحل له لغز ، ولا تنفك عقدة ، كأن دوافعه سر صفيق أشبه بالأزل والأبد ، والبقاء والفناء . قالت فادية وهى تتظلم وتستغيث : ما يغيب عنى أنى أوجع روح أبى بحنينى إلى عزيز عدوان ، ولكنى أحبه يا أمى . أما ترفقان بى وبقلبى فتنصرانى فى ميولى ؟ ... بوسع أمين الطريف أن يرفع إليه عزيزاً ويسبغ عليه من النعمة ما يبيت به فى مستوانا !

فلمست الأم فى ابنتها مبلغ الشوق إلى العازف الأعمى . وتمثلت سلطان الحب وارتعدت . إنه ليهدم النهى والطبقات ، فيصبح سافلها عاليها . وخافت منه على ابنتها وقالت تجاهد فى انتشالها من مخالبه الرهاف : أرأيت أنك لا تملكين هداك ؟... أنى يرفع أبوك إليه ذلك الكفيف وليس له رجلان يهدأ عليهما وقد أمسى فى منزلتنا ؟... فلا علمه ، ولا شكله ، ولا أصله ،

تشفع فيه ؟ ... وهل يروقك أن يتزوجك من تمسين له عصاً ترشده إلى الطريق ، ويدأ فى إطعامه وإلباسه وإعالته ؟ ... وكيف تطيقين أن يقال فيك إنك زوجة ناقر عود ؟ ... فهل للبيئة الراقية فى قومنا أن تفسح لك إليها وزوجك بعوضة فى لجة ؟... ما أنت فى سوى نشوة غابت بها عنك الحقيقة الراهنة. فابذلى وسعك فى استعادة يقظتك فيتفتح قلبك وذهنك للمحسوس وتجرى قدمك فى النهج الرشيد !

فزفرت فادية وقالت بلهفة الحسير : ما توانيت فى مجهود لإقصاء هذا الممسك بنهيتى وجنانى عنى . وكنت أحس ، أنى اتجهت ، بأنى أسعى فى الباطل . فالحب مستحكم من لبى . أما عرفت الحب يا أمى ؟

فتمالكت الأم على دبيب الحنان وقالت : بلى ، عرفته يا فادية ، وشعرت بوقعه . إلا أنى تحاميت فيه الإسفاف . فما بحثت عنه فى المزالق والدمن ، بل فى الأعالى . فأنفت من النظر إلى الأرض وأنا أبتغيه ، وشخصت ببصرى إلى السماء وما همت بسوى الدرارى . فاقتدى بى فى منازعى وكونى لحاتم منظوز وهو السنايا ، ومايقل عن أبيك علواً وشأواً . فما ولدناك للهوان يا ابنتى . وهل لى أن أصدق أن فادية ، عنوان الحصافة والرصانة تزل بها القدم فتهوى خادماً من خدمنا ؟ ... يا ويلى ! ... ليس

تزيز عدوان الأعمى غير سائل نجود عليه بفضالاتنا . فاستيقظى من غباوتك !

فأعلنت بذل الاستجداء : هلا حسبتماني من هذه الفضالات يا أمي ؟

فاستعظمت الأم البلاء ونخعتها الطلبة المسترحمة ، الملتاعة ، كأن حشاشة ابنتها باتت وقفاً على العازف الأعمى . وهتفت بنقمة وارتياع : أأنت من يبدى هذا الاستعطاف يا فادية ، أنت ابنة أمين الطريف ؟ ... إنى لأشك فى كون هذه الذلة تصدر منك ، وإلا فلست حيال ابنتى . لا ، ما أنت فادية الطريف. إنى لأجهلك . ابنتنا لا تتدحرج إلى هذا الحضيض . فمن قادك إلينا ؟ ... أتوافقين على أن تكونى من فضالاتنا كى نجود بك على أعمى حقير ولا يلم بك خجل ؟ ... أصحيح أنك منا وأنى ولدتك ؟... محال . سأسأل أباك عمن أودعك دارنا . فيا لزراية عيشنا وقد ساعدناك على النماء . فأين عقلك ؟ ... هل خسرت الحجاك ؟

ونتأت عينا الأم حافلتين بالتوبيخ القاسى ، ناضحتين بالرهبة. أهل ضاعت ابنتها عن نفسها فذهبت بعيداً فى جموح مهجتها ؟ ... وشعرت فادية بانهيار حظوتها لدى أبيها وأمها ، فقالت بصوت ضعيف ، يتهالك على الاستجارة : لا تلومى يا أمى . عاهدته

على الوفاء ولن أتقهقر عن الحفاظ . وإن يكن عزيز ذلك الأعمى فسأهب له من حنانى ما تنجلى له به كوى الضياء . وإن يكن حقيراً فسأنفحه بنقاوة مغرسى ، فيزكو ويطيب مهدا لى إليه أو فاقتلانى . أصبحت بينكما وبينه فى حيرة من أمرى !

فصرخت الأم مرعوبة : وأى وفاء يحفزك إلى التماس البلية ؟ ... ليس عزيز عدوان غير مصيبة حلت بنا فادفعى عنا شرها إذا كنت تبتغين لنا الحياة . وبمَ ستنفحينه منك كى يسمو ؟ ... أبوك سينكرك ، بل سيقتلك . وهل للنتن أن يعدل العطر مهما سكبت عليه من طيوب ؟ ... سيظل نتناً تشيح عنه الأنوف بلا رجعة . ومن للبومة يحملها على التغريد وهى المفطورة على النعيق ؟ ... هل استوليت على سر الإبداع ودان لك الخلق ؟ ... لن تكونى لسوى حاتم منظور . وهو من اصطفينا لك . وستقعين بجانبه على خيرك وسعدك ، وكل عناد يعود بالوبال عليك !

فهتفت من كبد صاح فيها اليأس الفاحم : إذن فاقتلانى أقتلانى !

فثبرت الأم بمتفاقم الغيظ : وهو ما سنفعل . فلا خير منك يرتجى وأنت فى هذه السورة من الحمق . ولو كنت على نزر

من وفاء ، كما يشوقك أن تزعمى ، لذكرت فضل أبيك عليك . فهل لك بمثل هذه الإساءة الكافرة أن تكافئى الحسنى وتظاهرى الجميل ؟ ... ألا ماذا تبقين من شموخ أمين الطريف وأنت تتزوجين العازف الأعمى؟ ... أما تغيّبين بيديك وجه أبيك فى التراب وقد مرغت جبينه فى العار ؟... زغرتا لم تعلم حتى الساعة ما كان منك . ويا لذلنا حين تدرى . فاتئدى فى غلوائك ولا تنزلى أباك عن علياته . فلا يجزى بمثل هذا العقوق أمين الطريف !

فما فتئت تصيح : أقتلانى وانقذانى من نفسى ، واستريحا من بلائى !

فأبدت الأم بشدة : أبوك كاد يرديك لو لم نقف به عنك . ولن يصعب عليه أن يعيد الكرة إذا امتد بك هوسك . فمن ينزع إلى الغض من أمين الطريف لم تنتفض به رحم . فتفادى من الإمعان فى الإيلام وإلا فأنت فى مبلع العدم . عزيز عدوان ليس خليقاً بنا ولا بك . فلا تلتفتى إلى سوى حاتم منظور وهو من أندادنا ومن أكفائك !

— وعهدى ؟ ... وحبى ؟

فضحكت الأم ضحكة متوترة تموج بالتهكم وقالت بازدراء: لا تركنى إلى هذه السفاسف وهى حجة عليك فى

كلال بصيرتك . فهل لمثلك أن تذكر أعمى ممتهناً فى معرض الهيام ؟ ... ماذا فتنك فى ناقر العود الأعمى فاجتذبك إليه وهو الشبيه بالسائل ، فيحمل عوده كجراب المستعطى يلتمس به عطف الكرام عليه ؟ ... أغرك شبابه ، أم استهواك بجاهه ؟ أم طمعت فى ماله ؟ ... خير لنا جميعاً أن نبصرك فى حفرة جثة خرساء من أن نبيحك لذلك الوضيع . والله ، ثلاثاً ، لن أكلف أباك القضاء عليك وسأودى بك بيدى !

والمرأة فى زغرتا فى مضاء الرجل . لها عزمه وجرأته . فتشاطره الكر والفر . وتقف من الموت موقف الساخر على أن يسلم الشرف وترضى البطولة . ولم تكن والدة فادية فى تهويل. فإذا توعدت ابنتها بالموت فستنجز وعيدها . ومضت تقول والكلام الصاخب الغضبان على احتدام فيها : أتجسرين على التلفظ بالعهد والحب وأنت تذكرين الأعمى الطريد ؟ ... إنك لطائشة : فالجهالة مستحكمة منك . على أن الزمن كفيل بأن يزيح عن عينيك الغشاوة الطامسة إنسانيهما ويجتاحك الندم الأكول . ولكن من لك وقد تخاذلت أن يلتفت إليك ؟ ... فكونى ذات إدراك ولتنفذ عينك إلى صميم غدك . عليك أن تتحامى الشماتة ، والكبوة ، والقهر ، وكلها بانتظارك وأنت تلتوين عن محجتك . أأخاطب ذات خفة وبله فلا تفهمنى ؟

فلم تخرج عن صيحتها الحاطمة : أقتلانى . أقتلانى . من عارى . قلبى لا يطيعنى فى نبذ هواى !

فنفد صبر الأم وهتفت بمستطير الحنق : وسنقتلك . دمك حلال لنا . لن يضم هذا البيت من يشوقه تقويض مكانتنا وإذلالنا . فاستعدى للفظ روحك !

وانفتلت إلى زوجها زاعقة : أقتلها . هذا هو الدواء الحاسم . فكل إقناع نبا عنها . أقتلها بلا إبطاء وما ترمى إلى سوى تحقيرنا . فإنها لفى صمم الحجر . كل نصح يضيع فيها . وكل جهد فى النهوض بها من الحمأة يطير كالهباء . ليت أبقينا لك مداك فى استلال أيامها . فاقتلها ، وقد طاشت عن مستواها ، لئلا تكون خشبة فى نعشنا !

غير أن الأب كان قد سكن بعد فورة . فالعاصفة هدأت لتفسح إلى الروية والتأنى وما تزال فادية ابنته الفضلى . وأجمع على مداواتها بدائها . فيلوذ بمن تهوى كى يقف بها عن جماحها . نظام الطبقات لا يخرج عن كونه المنهاج الأمثل فى عرف أمين الطريف . أما خلجات الأفئدة ، وصيحات المنازع ، فهى لديه ترهات . كل بيئة تنهل من معينها ولا عبرة بالشاذ ، بل لا قيام له . فما بذل أبو حميد من نفسه كى يعود القهقرى .

ونظر فى ابنته إلى منزلته كأنه يزوّج نفسه . فلا يليق بابنة

أمين الظريف سوى نظراء أبيها . وفى هذا الطريق قاد العازف الأعمى . على ناقر العود الضرير أن يسلخ منه فادية كى يرفعها إلى مستوى انحدرت عنه . كأن نبضات القلوب محدودة المرمى . فليس لها أن تتجاوز نطاقاً مضروباً عليها . وارحمتاه للكفيف الشهيد ! ...

٨

ولج عزيز عدوان حجرة فادية متوكئاً على ثلاثة لا تزيغ عنه . عوده وعصاه وعماه . وانضم إليها الرفيق الآخر وكان قد نأى عنها . فاليأس بعد جلائه عن العوّاد الضرير ارتد إليه يجهر بحرصه على منيع الولاء . ومشى عزيز إلى فادية يحييها بابتسامة هادئة . إلا أنها مشحونة بالألم ، وكأنه يدوس قلبه فى كل خطوة يخطوها . فليمت فيه هذا التياه النبضة ولا حق له بالمسرة . فما حفل به الوجود ليعلو به عن الأشواك والأطمار .

وبدا لفادية فهزها إليه متأجج الحنين . غير أنها لم تصدق ناظريها . كيف اتسع لعزيز السعى إلى غرفتها ؟ ... ألم يبصره أبوها ؟ ... كانت ترقب له الطرد والشتم ، بل القتل ، فما به يبدو إزاءها بهدوء وأمان، كأن لم تضطرب لأجله الأرواح ، ولم تتقلقل أسرة فى موداتها ، مع مكين وئامها ووفور طمأنينتها ؟

وشخص لابنة أمين الطريف أن العازف الأعمى انسل إليها على غفلة ممن فى الدار . فهتفت له تحييه بصوت يترنح فيه شجو الأغاريد : ألا مرحباً ، مرحباً وقد جئت يا عزيز !

واعتزمت أن تخفى عنه ما دهم المنزل من تباريح . وخافت عليه من نقمة أبيها . ومالت إلى صرفه عنها لئلا يلقى مصرعه وقد درى به أهلها . وحارت بين أن تبقيه وأن تميل به إلى الرحيل . أماهو فدنا منها وقد دله عليها صوتها . وما زال يبسم لها بسمته الزاخرة بالشجن . وتعجب من نفسه وقد ملك القدرة على النطق . فقال بنأمة تغالب ما تنوء به من غصص : يدهشني أن يلمّ بك التعب يا فادية ، مع أنى غادرتك وأنت فى خير عافية . فماذا انتاب الحسن الأنيق من وجيع ؟ ... وددت لو أن ما بك اعترانى ، ونجت الملاحة الفريدة من لؤم العناء ! .

فحفزها حرصها عليه إلى إبعاده عنها . وهمت بأن تعالنه ضرورة التروح عن المغنى المنيف وهى المصابة بداء وبيل تخشى فيه العدوى . غير أنها تحامت إيلامه، وشاقها أن تراه . وجلس عزيز بقربها وكلها قلق عليه . وتلفتت إلى جميع النواحى لترى هل من يرصده . وعقدت النية على افتدائه بحياتها إذا ناله مكروه .

وراقتها كلماته ولمست فيها وقدة الولوع . قالت والخوف عليه يستعر فيها : سلمت يا عزيز . إنى لعلى جمام اليقين بنبل روحك وإخلاصك . وما يقبل يوم إلا وينفحنى منهما بمكين التباشير !

فقال وهو ينزع عوده من مصانه : هل لك فى الإصغاء إلى رنين الوتر ؟ ... لا بد أن يخفف عنك سورة العلة ؟ ... وقعت على لحن بهيج يروقنى أن أشنف به أذنيك !

فتعاظمت هواجسها وهتفت : لا ، لا !

أتذيع أمره وتفضحه فتعرّضه للويل ؟ ... قال يستوضح متمهلا فى أداء الكلام : ولماذا لا تلقين مسمعك إلى الصفايا ، هل يؤذيك نقر العود ؟

فأجابت بشدة تفرض الإقناع : نعم ، نعم !

قال يميل إلى محادثتها فى ما جاء فيه : هو لحن سمعته ليلة أمس ، فى مجلس حاتم منظور ، زينة البلدة . دعا إليه نخبة من المغنين والعازفين وكنت فيهم ، فشجانى اللحن القسيم واجتهدت فى حفظه كى أؤديه بين يديك . أما وأنت لا تطيقين رنات العود فسأرجىء نشره ريثما تنعمين بالنشاط . وأرجو أن تدركيه فى موعد وشيك !

وما كان إلا مخترعاً . بيد أن المنهج المبيّت يقدر عليه هذا التعريج على حاتم منظور إخفاقاً لشهوة أبيها . فلم يندّ عن الهائم الضرير أن أميناً الطريف وراء الجدار مرهف السمع . فكل كلمة تلقّاها فى وعيه وطيد القرار . واستفهمت فادية ببعيد الفضول : وهل أحيا حاتم منظور فى ليلة أمس مجلس طرب؟

فأذاع يتغنى بمآثر حاتم ، وفى كل لفظة يطلقها فلذة من قلبه الفتيت : لحاتم فى كل ليلة مجلس أنس . فأنى لاح الصفاء استهدى مراتعَ البهجة موئلَ حاتم منظور . فكأن هذا السيد المغبوط مفزع كل نسمة من مرح وبشر . ينفق عن فوران من نعمة ولا يسأل يده عما أطلقت من وفر . فتغرف وتهب . وما يشوقها إلا أن تضيء الغبطة فى القلوب ، وأن ينجلى عن الجباه العبوس. أبقى الله أباك . إن حاتماً لشبيه به فى نفحات الجود . غير أن شباب حاتم يخلع على مجالسه ناراً مشبوبة من اللهو العريض تتماسك عنه رصانة أبيك . وإن القوم ليزحفون إلى داره أسراباً تلو أسراب ، وكأنهم لديه فى عرس لا نهاية له . وددت لو شهدت محفلا من محافله ، إذاً لعرفت السيد الرحب الفناء ، المبسوط النوال . كل ما فيه على عطاء . قلبه ، وفمه ، ويده . ما رأيته إلا واحة من كرم ، عنده لكل نزيل خباء !

وأفاض بما يستهويها . وأحس وكلماته تطفو على شفتيه بكونه ينعى نفسه . فيموت ليسخو بالحياة على سواه . وهو الفداء الأكمل . تمحى غبطة لتفسح إلى غبطة أخرى مجال الانبثاق . كأن الوجود يضيق بالبشاشات . فلا تنتعش روح بسوى هلاك روح . ولا تنقشع الغضون عن جبين إلا لتدهم جبيناً آخر . وهكذا

دواليك . هناء نفس بشقاء نفس . وما للمساواة مقام .

فأكبرت على رغمها باهر الفخفخة . والمرأة عبدة البذخ والإسراف . فما يشوقها إلا أن تحيا فى سمين الترف . واستفهمت فادية وخيال حاتم منظور ما ينفك يرسو فى ذهنها منذ حدثها عنه أبوها : وهل تتسع أموال حاتم لهذا الإنفاق كله ؟

فأبان عزيز عدوان بحماسة يزجيه إليها الواقع والميل إلى إرضاء أمين الطريف : ليس لمن ملك البحر أن يرهب الجفاف. حاتم منظور فى خضم زاخر باليسر ، فأنى يتهيب الإملاق ؟... ما اشتهيت إلا أن تكونى لهذا الواهب بلا إمساك ، المقتعد ذروة الفتوّة ، القابض من السعد على الزمام !

فهتفت به مرعوبة : عزيز ، ماذا أسمع؟... هل تولتك الخفة ؟ ... ما بك تهذى ؟ ... أمجنون أنت كأنك ضعت عما بيننا ؟

فزفر وأجاب بلوعة دامية تأكل من لبه : ما عرفت نفسى مجنوناً إلا وقد جلست ، أنا الرثّ الثوب ، الحافى القدمين ، إلى مائدة الأرباب . وهل للجوع والشبع أن يلتقيا ؟ ... وهل للفقر والغنى أن يدرجا فى الأسلوب نفسه ؟ ... إن من ينظم الدرّ والخرز فى سمط واحد ليميل بالناس إلى الهزء به . وأنا ، وقد صبوت إلى إحقاق المحال ، لم أزد على إضحاك العقل منى .

فأطلب إليك إعفائى مما ندبت له وكدى ولا قبل لى به . فاغفرى لى جرأتى على التماس مودتك وليست لها أهلا . ومتى كان للسفح أن يطمع فى القمة ؟ ... وإذا دب إليه الغرور وهاجه حنين الاستعلاء فهل له أن يتبدل عن كونه سفحاً ؟... ومتى يتسع للجدول أن يمسى بحراً ، بل بحيرة ؟ ... فهل يدرك هذه الأمنية مهما أجهد جهده وأفنى ذرعه ؟ ... إن للوجود طريقاً مرسوماً يجرى فيه ، وهيهات أن ينطوى عنه . وهذا الطريق المرسوم ننتهجه جميعاً مكرهين على أمرنا . فالمعدن النبيل ، والمنجم الخبيث ، ينطلقان فيه دون أن يمتزج بعضهما ببعض فى سوى ما ندر . ومع امتزاجهما يصعب التئامهما . فتظل ثمة حوائل دون ذوبان أحدهما الآخر. وهذه هى حالى وحالك . لقد التقينا ، ولكننا لم نمتزج. ماأجد لك خيراً من حاتم منظور. فالنضار يعانق النضار ولا يخجل . والنسر يشق والنسر مسابح الأفلاك ولا يحتقر قرينه . وكم يسخر الصقر من نفسه وهو يجوب الجو فى مباراة الذبابة ، وليست جديرة بهزة ريشة فى خوافيه . وكم يزرى الذهب بالنحاس وقد مال الصائغ إلى مزج المعدنين معاً ليغض من شأن العزيز النفيس . وأنا منك ذبابة حيال صقر ، ونحاس مبتذل تجاه وضاء الذهب ، فأنى يجمع الزمن بيننا ونحن من أنفسنا على طرفى نقيض ؟ . . .

أنت للمجد ، وأنا للغضاضة ، فكيف نطمع فى اتحاد يخبو به نورك ؟

فأمعن فى تدويخها وهو يسوق إليها هذه الخواطر . وزعقت بارتعاد : هل أبصرك أمين الطريف قبل أن تبدو إزائى ؟... لا ريب أنه رآك وأملى عليك هذا المقال الزاهد ، وإلا فمن جنح بك إلى الانقلاب على الألفة ؟ ... لست صاحب هذه الآيات وما أنت فيها غير ناقل . أما دفعك أبى إلى نفثها فى وعيى كى يفسد ما تواضعنا عليه ؟ ... قل ، قل . كن جريئاً فى إعلان الحقيقة الصراح كما بدوت جريئاً فى دحض ميلك . أما حملك أبى على التقهقر عنى وإغرائى بحاتم منظور ؟

ورسخ فى خاطرها أن عزيزاً أشبه بالحاكى . فما يعالنها بما فى ضميره ، بل يردد ما لقنه أبوها من أمثولة . وتجلى لها سرّ الرضى عن دخوله عليها . فما نعم بهذه الصبوة إلا وقد عاهد على الانتحار . فينكر نفسه ، ويجحد حبه ، ويترنم بعوارف حاتم منظور . فالمكيدة مدبرة . وليس للعازف الأعمى أن يشذ عن شهوة أمين الطريف . وإلا فالرمس يرصده . ويا ويله من غضبة أبى حميد !

وعزيز ، وقد هاله أن يجهر بالعصيان ، وأن يعبث بالواقع الصراح ، فيقيم نفسه بمكانة فادية ، ما استطاع إلا أن ينفى

عنها هواجسها على فيض ما تزخر به من الصدق . قال وهو يخنق بيديه الاثنتين فؤاده : أأكون بحاجة إلى أبيك كى أدرك موقفى منك؟ . ... إن أكن أعمى العين فلست بأعمى النهية . وما للمحبين أن يخدع بعضهم بعضاً ويجرّوا أنفسهم إلى الهلاك بدافع العناد الغبيّ . أنت برضاك عنى تفقدين جلالك وسمعتك . وكيف أطيق ، وأنا المتهالك على استبقاء مكارمك ، أن أراك منهما فى خسران ؟ ... لا ، ليس الحب فى أن أضحى بك كى أهنأ . ولن أهنأ وسأقضى على نفسى وعليك بالمحن الحرارة حتى لا تكاد تنتهى . بل الحب فى أن يلتفت الهائم إلى مصلحة من يهيم به ، فيقرّها على رغم صيحات جنانه . ولا بد فى الشوق الأسمى من فرجة للهدى ، لتنظيم الأمور ووزنها بعين السداد القويم . وأنا نظرت إلى غدك فيما أخلو إلى ضميرى ، فصارحنى بكونى أجور عليك وأنا أبيح لك مرافقتى . فإن طريقى لمملوء بالحفر ، وفى كل خطوة كبوة ، وأنت ما تعوّدت إلا المسير فى السهل المطمئن . طريق عزيز عدوان تلال من شوك، وليس لقدميك البضتين ، الرخصتين ، أن تقعا على ما يدميهما ويؤلمك . فى طريقى الشقاء ، والحرمان ، والخطر ، وما كان للراتع فى الأمن أن يعرّض نفسه للمكروه . لتبقَ الدرة اليتيمة فى حرزها وليس لها أن تفقد رونقها بنزولها إلى بطن التراب .

فالفحمة المسدولة على بصر عزيز عدوان ترافقه فى عيشه كله ، فلماذا تظلمين نفسك وترتضين لها ، وأنت المتقلبة فى المناعم، ما ارتضى لى زمنى من حيف وضيم ؟

فصاحت وهى تجتهد عفواً فى أن تخفى ما فى جيدها من آثار أصابع أبيها ، لئلا يبصرها عزيز ، مع يقينها بأنه الكفيف : ولكنى راضية لأجلك بكل ضنى ، على أن يجمع بيننا الحب الأثيل ، الركين !

فهز برأسه هزة يائسة وقال مستهيناً بالمجازفة المطبوعة على فاضح الإخفاق : موعد الهزل انقضى ، ونحن الآن فى عهد الرزانة . فلنفتح أعيننا على الحق ولنوطد عليه مصيرنا . كنا بالأمس مازحين ونحن نتعاطى أفاويق الهوى ، فلننفض منا الدعابة ولنقابل الحقيقة سافرين . لا حظّ لمنكود !

وابتسم ابتسامة مرّة كأنها عصارة قلبه المفلول . فهتفت به فادية : أتكون مفطوراً على الخيانة يا عزيز ؟... ألا أين الوفاء ، أين الحفاظ ؟

وتفجرت مدامعها تذيع يأسها . فكاد حبيبها الأعمى ينوح . إلاأن الأذن المفتوحة وراء الجدار أهابت به إلى التماسك . فاكتفى بأن يقبض على معصم فادية المختلجة فى أساها ويقول بصوت أبحّ ، مكدود : الوفاء فى أن أدرأ عنك الفاجعة .

الحفاظ فى أن أقودك إلى الغد الباسم . لا بأس على ضرير مثلى ، لا تصادفين فيه خيراً ، أن يموت وتسلم الزهرة الواعدة ، الرائعة فى أكناف العيش السعيد !

وتلاشت عزمته . وأحس بأنه يطعن كبده بنصلة ذات حدين ، لا تبقى على حشاشة . ولمست فيه ابنة أمين الطريف استرخاء الهمة ، وهو المكره على تمثيل دور مفروض عليه . لكأنه البرىء المحكوم عليه بالموت وقد جنا رأسه للشفرة القاصلة. ومالت إلى إحياء راكد جهده صارخة به : هذا صوت الخيانة يهدر فيك . أنت سليل الغدر والمكر . ما عرفت الأمانة تهون إلاوأنت حارسها . ناديتك للصفايا تنهل من رحيقها فجبنت عن ورود الينبوع . نهضت بك إلى الذرى تستنشق فيها أعراف السمو فأبيت إلا أن تبقى زاحفاً فى الدرن . أهبت بك إلى الخمائل الأبكار تقتطف منها الجنىّ اليتيم ، ففررت من الاستمتاع بالشهى الثمين . ألا ما أوجع خيبتى فيك . كأنى وقد ارتضيتك حبيباً وقعت على خيال عابر لا أثر له !

فكادت تجهز عليه وقد عصرت لذعاتها الحداد ما تبقى من مرضوض مهجته . على أن الطائر المذبوح ما استعصى عليه البيان . فظل يجد بعض الحجة على تبرئة نفسه من لطخة الانكفاء . قال وكلماته تغص بدمه : ما جهرت . بسوى الحق

أيتها الآنسة فادية . أنا كل ما رميتنى به من نعوت . وأنى أكون لمثلك أليفاً وأنا ابن الظلمات وحليف الأسمال ؟ ... فما أدمنت شراباً تبتل به شفتاك ، ولا مأكلا يمضغه فمك ، ولا مجلساً ينيره ضياؤك . أنا ناقر عود يحمل أوتاره على كتفيه ، وكأنما يحمل أوزاره ، فى التماس الرغيف . وسأظل مثلك ناقر عود . فتطربك ألحانى وحسب ، وإن تكن تطلقها نفس جفاها الطرب . وهل لمن ملأت الأقدار نفسه أنات ودموعاً أن يحظى بالبسمات العذاب ؟ ... وداعاً . لن أعدو حظى المكتوب : سأعود إليك ، ولكن كناقر عود !

وتحرك يروم النهوض . وراعه أن يستطيع الحراك وقد خيل إليه أنه لفظ روحه وقضى . على أن الألم أبى أن يفلت ضحيته . فوهب لها القدرة على الوقوف والمسير إمعاناً فى هصرها . ونادته فادية من قلب يعول : إلى أين ؟ ... إلى أين ياعزيز ؟

فأجاب وما تبرح ألفاظه مخضبة بدمه الفائر : أنا وحاتم منظور على موعد . دعانى إلى إحياء مجلس أنس !

ولم يجد غير هذه الوخزة يلسع بها لؤم القدر . هو مدعو إلى الرقص على قبره . وغادر فادية الغائرة فى لوعتها المحرقة تبكى باكورة الشغف . ولم تحقد على العازف الأعمى وما انفكت تراه يمثل دوراً مقدوراً عليه ، بل حقدت على الزمن وما

يفتأ يقود الناس أنى شاء ، لا كما شاؤوا . فهم بين يديه حجارة وهو يبنيها ويرفعها مداميك فوق مداميك . وليس لحجر منها أن يشذّ عن مدماكه ولا تبديل فى المكتوب.

وعلت شهقات فادية وضربات عصا عزيز تقرع جبهة الحضيض . ومشى الأعمى ثملاً بيأسه . ولقيه فى الرواق أمين الطريف فعانقه ، وهمس فى أذنه : أحسنت . إنى لمدين لك بالوزين . شكراً جزيلا وقد ذهبت ببلبالى !

وألقى فى يمينه صرة من الدنانير . فابتسم لها عزيز عدوان بازدراء المحتقر . وتجرأ على القول : شكراً جزيلا . إبقها لمن هو أحوج بها منى . لا تزد فى بلبالى !

فارتجف أبو حميد واتسعت عيناه هولا . أدرك مبلغ جنايته على الأرواح . إلا أنه أغضى على القذى . وللمرة الأولى تشك فى صدره النصلة فيحمتل وقعها ويغمض عنها الأجفان . عزيز عدوان لم يفتئت بحق فى ما نفث وهو المنكوب المظلوم . ولكنه نظام الطبقات . ولكنها المداميك يعلو بعضها بعضاً ولكل حجر مكان مرسوم ...

واتسع لحاتم منظور فى دار أمين الطريف على الأنس والرحب . ودعيت فادية إلى الامتثال فأطاعت بعد صارخ العنف وفى قلبها ولولة . ليس لها أن تلجّ فى معاندة أبيها . ورغب

أبو حميد، فى الإسراع فى عقد الزواج وما للأيام أن تتوالى فى الانتظار . وحاتم أيد الأب فى المطلب . عليه أن يعود إلى تجارته فى العالم الجديد .

وازدانت زغرتا بأبهى مطارفها إكباراً لليوم السنىّ . واعتلى فرسانها صهوات الخيل وقد تبرقشت رماحهم بالألوان الضاحكة كأنها وجه الربيع . وركبت الزينات الهوادج على غناء وحداء . وإنهن لعلى وفرة فى المضارب المنشورة فى أصقاع لبنان الشمالى . وماجت فتيات زغرتا أسراباً تلو أسراب يرقصن وينشدن على ألحان الدفّ والمزمار وقصفات البارود .

وما خلا الحفل من عزيز عدوان ناقر العود ، وهو كالملح للطعام . فإذا خلت منه مجامع الصفاء فمن لها يلهب روحها بالبشر الفتيق ؟ ... وجالت أوتار الضرير جولات رحاباً كأن فى كل رنة خفقة من وله ، ودفقة من خمر . وترنح سامعوها على نشوة أزرت بحميا الكؤوس . وعلت الأصوات تستزيد الناقر إبداعاً : إيه يا عزيز . هات من هذا الرحيق !

وأفاض العازف الأعمى بنجائبه . نفسه تسيل على الأوتار . فليأخذوا منه كل ما عنده . وأجاد كأن اليوم يومه . فادية تزف إليه ، لا إلى حاتم منظور . وأصغت فيه زغرتا إلى روائع الرنات فاستعبدها . وكأنها بين يديه أمة متيمة وله . هذا شجو

قلب لا شدو عود . وسعى إليه حاتم يمتدح التفوق ويسخو بالعطاء النضير . وما تجرأت فادية على الاقتراب ممن أقصته عنها أحكام البيئة ، مخافة ألا تملك نفسها فتنشر حبها الكظيم . فاكتفت بأن تنظر من بعيد إلى الحبيب المتخلف قسراً عن طيبات المنى ، وفى روحها نحيب ، وفى قلبها زفير .

وانطلقت السيارة على أجنحة بالعروسين تدفعهما إلى الشاطئ ليركبا منه البحر إلى أميركا . وظل مجلس الطرب معقوداً وأوتار عزيز عدوان تجدده كلما خبا . فليسكر بنو قومه بأنغامه ، وربما لن يتفق لهم أن يسمعوه !

وما خرس الوتر إلا والفجر يشرف على اليقظة . فانتثر الحفل يأوى إلى المضاجع مهدهداً بالروعة المسماح . وعزيز تهادى إلى مثواه ، ولكن ليعود فيثمل وحده برنات أوتاره . ففى نفسه لحن ما يزال يشتاق إطلاقه . وهو اللحن الشرود المجنّح. وما كاد ينتهى منه إلا وقد انقطع الوتر . فأكبّ عزيز عدوان على عوده الجريح يبكيه . ولكن لطف الله بعزيز . مات بطلوع الصباح ، ويده ممسكة بوتر مقطوع ، وعين قلبه جامدة على سبوح السراب .

(تمت)

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعة والثقـــافة وسمو النفس

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك



سندباد
تصدر كل يوم خميس
مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
رئيس التحرير
محمد سعيد العريان
تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات



بيبسى كولا
PEPSI-COLA
لذيذة
منعشة
مشروب الضيافة